# مجلة كلية الآداب

المجلد السادس والعشرون

١٩٧٢

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبى ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٧٩

## فهرس


العلاقة بين فخر الدين المعنى الثانى والدولة العثمانية — صفحة

دكتور عمر عبد العزيز عمر ... ... ... ... ... ... ... ... ١

الولادة المقدسة ودورها فى أحقية العرش فى مصر القديمة

دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم ... ... ... ... ... ... ٥٣

العلاقة المصرية — اللبنانية فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٤٠

دكتور عمر عبد العزيز عمر ... ... ... ... ... ... ٦٣

دراسة مقارنة للفروق بين الجنسين من الموهوبين فى بعض سمات الشخصية

دكتور خليل ميخائيل معوض ... ... ... ... ... ... ١١٧

# العلاقات بين فخر الدين المعنى الثانى والدولة العثمانية

## ( ١٥٩٠ — ١٦٣٥ )

للدكتور عمر عبد العزيز عامر

### ١ – دخول « لبنان » فى حوزة العثمانيين :

فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر شهد حوض البحر المتوسط انقلاباً جذرياً فى التجارة الدولية ، وتغييراً فى الطرق التجارية الرئيسية ، كما شهد أيضاً انقلاباً سياسياً فى توازن القوى الدولية الرئيسية . وكان لهذين الانقلابين ، التجارى والسياسى ، أثر سيىء فى لبنان . فلقد تحول طريق التجارة الرئيسى إلى رأس الرجاء الصالح ، ولم يعد البحر المتوسط «بحراً يتوسط العالم المتمدن» كما كان زمن الفينيقيين . وفى نفس الوقت أخذ العثمانيون – الذين كانوا خلال القرنين الأخيرين يثبتون أركان ملكهم فى البلدان التى استولوا عليها فى آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان – يتطلعون جنوباً إلى البلدان العربية التى كانت فى حوزة المماليك . وكانت السلطنة المملوكية قد فقدت قوتها ونفوذها لأسباب عسكرية واقتصادية . فانحل النظام العسكرى المملوكى وأهملت التدريبات التقليدية فى الفروسية وكره المماليك استخدام الأسلحة النارية ، وكان الأمر على عكس ذلك فى الدولة العثمانية التى استخدمت الأسلحة النارية ، وهى لا تزال فتية ، فبلغت بها ذروة قوتها (١) . ومما عجل بانحطاط الاقتصاد المملوكى تحول طرق التجارة

---

(١) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ – ١٧٩٨) ، دمشق ، ١٩٦٦ ، ص ١٩ – ٢٣ .

ومنافسة البرتغاليين التجارية للمماليك ؛ وفشل المماليك ، دبلوماسياً وعسكرياً ، فى وضع حد للخطر البرتغالى الاقتصادى والعسكرى (١) . وبينما كانت السلطنة المملوكية فى مرحلة الانحطاط ، تأزمت العلاقات بينها وبين الامبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيهما ، وبسبب صراعهما على النفوذ . وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام ، بين العثمانيين والمماليك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر (٢) .

وبعد أن هزم العثمانيون الصفويين فى موقعة جالديران عام ١٥١٤ ، اختل توازن القوى فى المنطقة لصالح العثمانيين ، لاسيما وأن هؤلاء أزاحوا حاكم ألبستان علاء الدولة ، الذى كان حليفاً للمماليك ، بسبب عدم مساعدته لهم ضد الشاه اسماعيل الصفوى ، ووضعوا خلفاً له علياً بن شاه سوار الذى أصبح تابعاً للعثمانيين . وقد أقلق المماليك هذا التبدل على الحدود الشمالية ، وزاد من شقة الخلاف بينهم وبين العثمانيين . واتهم المماليك العثمانيين بأنهم يمنعون التجار المارين ببلادهم من جلب المماليك الشراكسة إلى بلاد السلطنة المملوكية . ولكن الموقف تأزم كثيراً حين علم العثمانيون ، أثناء القتال مع الصفويين ، بالمفاوضات السرية بين الشاه اسماعيل والمماليك ، وبمحاولة هؤلاء إيقاف قوافل المؤن العثمانية إلى السلطان سليم . وزاد من حدة الموقف لجوء ابن أحد أشقاء السلطان سليم ، الذى سبق أن ثار عليه ، إلى المماليك ، وكان قبل ذلك لاجئاً لدى الشاه اسماعيل ، ورفض المماليك تسليمه إلى العثمانيين بقصد المساومة عليه (٣) .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠ – ٢٣ ، ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ – ٤٥

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٧ – ٨٦ .

وفى مايو عام ١٥١٦ ، غادر السلطان المملوكى قنصوة الغورى مصر متوجهاً إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير . وكان هدف السلطان المملوكى استعادة مرعش من العثمانيين وتخليص ألبستان من نفوذهم . ودخل السلطان المملوكى دمشق واستقبل استقبالا رسمياً حافلا . وغادر الغورى دمشق متوجهاً إلى حلب ، واعتقد أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنته سيخيف السلطان العثمانى فيتنازل له عما يريد . وكان الغورى يفاوض ، فى نفس الوقت ، الشاه اسماعيل الصفوى ، ليتحالف معه ضد العثمانيين ولكن وقوع مراسلات الغورى مع الشاه اسماعيل فى أيدى العثمانيين جعل السلطان سليما يتعجل الأمر للقضاء على جيش المماليك. ولهذا احتل السلطان سليم عينتاب ، واستعد للمسير نحو حلب للقاء الغورى الذى كان قد دخلها فى ١١ يوليو . وإذا كان السلطان الغورى قد قصد فعلا من مجيئه إلى بلاد الشام مجرد إخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فإنه قد أساء التقدير فعلا ، لأنه استثار بعمله هذا العثمانيين ، ودفعهم إلى القتال .

وفى ٢٣ أغسطس عام ١٥١٦ ، التقى الجيشان العثمانى والمملوكى فى موضع يعرف بتل الفار فى مرج دابق ، قرب حلب ، وهزم المماليك وتوفى سلطانهم . ويرجع انتصار العثمانيين إلى قوتهم العسكرية ، لاسيما استخدامهم بندق الرصاص فى المعركة — ذلك السلاح الذى كره استخدامه المماليك الفرسان . وكان القتال فى مرج دابق يسير ، فى البدء ، لصالح المماليك الذين أبدوا شجاعة كبرى ، ثم تحول ضدهم بفعل تأثير رصاص العثمانيين من ناحية ، وبسبب الخيانة فى صفوف المماليك من ناحية أخرى . فقد كان خاير بك المملوكى يعمل علناً لصالح العثمانيين ، ثم انتقل مع أتباعه من صفوف المماليك إلى صفوفهم أثناء المعركة . واتهم جان بردى الغزالى ، فيما بعد ، بأنه كان متواطئاً مع العثمانيين فى مرج دابق . وكأفا العثمانيون خاير بك والغزالى ، بعد احتلالهم بلاد الشام ومصر ، فأعطوا الأول حكم ولاية مصر ، والثانى حكم ولاية الشام . وفى ٣ سبتمبر

عام ١٥١٦ : عاد الغزالى إلى دمشق ونادى به الأمراء المماليك نائباً عليها ، أما السلطان سليم فتابع سيره إلى حلب ، يرافقه خايربك والخليفة العباسى . وعين الغزالى — الذى أصبح يؤيد ، فى الظاهر ، السلطنة المملوكية — حكاماً من قبله على حماة وحمص ، وتحالف مع ناصر الدين بن الحنش ، الأمير البدوى المسيطر على البقاع ، وعينه ، حسب طلبه ، نائباً على حمص ، لقاء تعهده بمقاومة العثمانيين وحماية المنطقة الممتدة بين حماة والبقاع . كما أنه عين صهر ابن الحنش — ابن جانبای البدوى الملقب بأمير الشام — على بلاد حوران والمرج . واستمر العثمانيون فى تقدمهم جنوباً صوب دمشق ، فدقوا أبوابها فى ٩ اكتوبر ولاقاهم سكانها من عرب ودروز وموارنة بترحاب ، وفتحوا لهم أبواب المدينة . وباستيلاء السلطان سليم على دمشق ، أصبحت كل سورية — حتى مدينة غزة — تحت السيطرة العثمانية . وفى العام التالى تم فتح مصر بعد الحاق الهزيمة بالمماليك فى موقعة الريدانية .

وأثناء عودة السلطان سليم إلى استانبول ، قضى أشهر الشتاء فى دمشق . واهتم السلطان سليم فى دمشق بثلاثة أمور هى : ادخال بعض التنظيمات العثمانية فى دمشق بقصد تدبير المال للدولة ؛ وتوطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لايجاد الاستقرار ولحماية قافلة الحج ؛ والانتقال بسرعة إلى الأناضول لمواجهة خطر الشاه اسماعيل الصفوى . وفى خارج دمشق اتخذ السلطان سليم اجراءات تنظيمية ، فأبقى الأمراء المحليين الذين أيدوه ، وأزال من السلطة الذين عارضوه . وقد حاول أولا القضاء على أمير البقاع البدوى ناصر الدين ابن الحنش بسبب ازدياد نفوذه ، وتحكمه فى منطقة البقاع الغنية التى تمر فيها الطريق الرئيسية بين دمشق وبيروت ، وإيوائه كثيراً من المماليك الفارين ؛ فهرب ناصر الدين اثر سماعه بخروج السلطان سليم بنفسه على رأس حملة ضده . وعين السلطان سليم مكانه الأمير محمد بن قرقماس الشركسى ، وأضاف إليه حكم بيروت وصيدا . وقدتضرر الأمراء التنوخيون فى جبل

لبنان بسبب تأييدهم لناصر الدين بن الحنش إذ عمد السلطان سليم إلى اعتقالهم ، ولم يطلق سراحهم الا بعد أن قتل ناصر الدين فيما بعد (١) .

وكان الأمراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، إلا أنهم فقدوا هذه الزعامة التي انتقلت إلى المعنيين — برياسة فخر الدين الأول (٢) — الذين أيدوا العثمانيين في معركة مرج دابق ، فاعترف العثمانيون بهم أمراء على جبل لبنان (٣) . وذكر أن الأمير فخر الدين المعني الأول ألقى خطبة في دمشق بعد أن تم النصر للسلطان سليم مجد فيها السلطان سليم العثماني وقال : « اللهم أدم دوام من اخترته لملكك ، وجعلته خليفة عهدك ، وسلطته على عبادك وأرضك ، وقلدته سنتك وفرضك ، ناصر الشريعة النيرة الغراء ، وقائد الأمة الطاهرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين الامام العادل ، والذكي الفاضل الذي بيده أزمة الأمر بادشاه ، أدام الله بقاءه ، وفي العز الدائم أبقاه ، وخلد في الدنيا مجده ونعماه ، ورفع إلى القيامة طالع سعده ، وبلغه مأموله وقصده .. أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتمهيد .. آمين » (٤) . ولكن هذه الخطبة مشكوك في صحتها لأنها تتضمن اشارة واضحة إلى موضوع الخلافة العثمانية ، فالمعروف أن السلطان سليم لم يعلن نفسه خليفة (٥) ، كما يشك

---

(١) Lammens, *La Syrie : Précis Historique*, (Beyrouth, 1921(, T. ii. p.56.

(٢) المعنيون من السلالات العربية ، فهم بطن من بطون ربيعة . قد انتقلوا إلى الفرات ثم إلى منطقة حلب ، ثم درجوا جنوباً حتى البقاع ، واستقروا أخيراً في الشوف في القرن الثاني عشر الميلادي ، واشتركوا مع آل شهاب جيرانهم وحلفائهم في وادي التيم ومع آل تنوخ في غرب لبنان في قتال الصليبيين . وحينما أقبلت الجموع العثمانية إلى مرج دابق ، ترئيث أميرهم فخر الدين الأول مترقباً نتائج القتال . ولما ثبت سليم في الشام ، أقبل عليه أمراء جبل لبنان وعلى رأسهم فخر الدين وقدموا له فروض الطاعة والولاء .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر : محمد علي مكي ، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (٦٣٥ — ١٥١٦) ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٧٣ — ٢٨١ .

(٤) محمد علي مكي ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٨٨ — ٩٣ .

فى صحة هذه الخطبة من ناحية أسلوبها ، كذلك يشك البعض فى اللقب الذى نسب إلى المعنيين وهو تلقيب السلطان العثمانى للأمير فخر الدين بلقب «سلطان البر» .

ولقد عين السلطان سليم جان بردى الغزالى والياً على دمشق ، وأطلق يده فى كل جنوب سورية من معرة النعمان إلى العريش . وحتى نهاية عهد سليم ، كان جان بردى الغزالى مشغولا على الأخص باخضاع القبائل ؛ إلا أنه عندما علم بوفاة سليم فى أكتوبر عام ١٥٢٠ قام بالثورة وأطاح بالحاكم العثمانى لاقليم البقاع وعين بدلا منه أحد العرب المحليين . وعاد الغزالى بعد ذلك إلى دمشق فحاصر القلعة التى كانت تحت قيادة ضابط عثمانى ، وبعد استيلائه على القلعة أعلن عصيانه على السلطان سليمان ومنع من ذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، و«تسلطن» فى الجامع الأموى فى دمشق ، واتخذ لنفسه لقب الملك الأشرف ، وخطب له على المنابر (١) ، كما ضربت السكة باسمه على الذهب والفضة (٢) . وفى نوفمبر من نفس العام ، بدأ الغزالى فى الزحف على حلب لأهميتها الاستراتيجية ، ولكن القوات العثمانية قتلته عند قابون بالقرب من دمشق فى فبراير من العام التالى . وعين القائد العثمانى والياً عثمانياً جديداً على دمشق بدلا من المماليك واقتصر نفوذه على دمشق وما جاورها . وعين حكاماً تابعين له فى غزة وصفد والقدس ، الا أن طرابلس رفعت إلى مرتبة الولاية وأصبحت على قدم المساواة مع حلب ودمشق .

ويعتبر القضاء على الغزالى نهاية لآخر نفوذ المماليك فى بلاد الشام ، وبداية لحكم العثمانيين الفعلى بها . وقد عزز العثمانيون حاميتهم فى دمشق ، كما جددوا من سعة ولاية الشام ، وأعادوا النظر فى التقسيمات الادارية فى بلاد الشام . وعوضاً عن امتداد سلطة والى الشام على المنطقة الممتدة

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مصر ، ١٣١٢ هـ ، ج ٣/٣٧٥ .
(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، دمشق ، ١٩٢٥ ، ج ٢/٢٣٢ .

من معرة النعمان وعريش مصر . كما كان الأمر فى عهد الغزالى ، فقد اقتصرت سلطة الوالى وقتئذ على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش ، وقسمت هذه بدورها إلى صناجق (١) . وأصبحت التقسيمات الادارية فى بلاد الشام ، فى القرن السادس عشر ، على النحو التالى : ولاية الشام ، وتتألف من الصناجق التالية : دمشق مركز الولاية ، القدس ، غزة ، صفد ، نابلس ، عجلون ، اللجون ، تدمر ، صيدا مع بيروت ، والكرك مع الشوبك ، ولاية حلب ، وتتألف من الصناجق التالية : حلب مركز الولاية ، أدنه ، كلس ، بيره جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان ، وتركمان حلب واعزاز ، وولاية طرابلس ، وتتألف من صناجق طرابلس مركز الولاية ، حماة ، حمص . سلمية ، جبلة ، اللاذقية ، والحصن . ومما يلاحظ هنا ، أن هذه التقسيمات لم تكن نهائية إذ كثيراً ما كان يلغى صنجق ما ، أو يدمج بآخر ، أو يؤسس صنجق جديد . وسنرى أن صنجق صفد ، وصنجق صيدا مع بيروت ، قد سلخا عن ولاية الشام ، فى القرن السابع عشر ، وتأسست منهما ولاية رابعة فى بلاد الشام هى ولاية صيدا . (٢)

---

(١) تميز حكام المناطق العثمانية عن غيرهم من الموظفين باستخدام اللواء (الراية) ، الذى كان يطلق عليه فى التركية اسم سنجق Sancak – أو صنجق كما يعرف فى العربية عادة – ولهذا عرف الواحد من هؤلاء الحكام باسم «أمير لواء» ، الذى اختصر فأصبح «مير لواء» أو باسم صنجق بك (صنجق بك) Sancak beyi . ولما كان هؤلاء الصناجق مسؤولين عن قيادة جنود مناطقهم فى الحرب ، وعن تصريف الشؤون الادارية فيها ، فقد أطلق لفظ صنجق أو لواء على المنطقة التى كانوا يحكمونها .

(٢) أنظر : أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى ، حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٥٣ ؛

B. Lewis, Studies in the Ottoman Archives — I, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, XVI. 3, 1954, pp. 471 — 2.

وفى الولايات الجبلية أو البعيدة عن قلب الدولة العثمانية ، كان الحكم العثمانى صورياً أو اسمياً ، أى أن الدولة لم تكن ترسل حكاماً عثمانيين وانما هى تعترف فقط بوجود رياسة معينة قد تكون قبلية أو عسكرية أو اقطاعية تحكم باسم السلطان ، وتؤدى للدولة قدراً معيناً من الجزية فى كل سنة ، ومن هذه البلاد : أجزاء من شبه جزيرة بلاد العرب أو الجهات الجبلية مثل كردستان وبعض أجزاء من سورية ولبنان . وكانت الأسر فى جبل لبنان منقسمة إلى حزبين : قيسية ويمنية ، وهو من بقايا العصبيات التى انتقلت مع القبائل العربية (١) . وكان المعنيون قيسية ، بينما كان أعداؤهم من الدروز ، برئاسة آل علم الدين ، يمنية . وضم الحزب الواحد أتباعاً من مذاهب مختلفة ، كالسنة ، والشيعة ، والموارنة . ولم يقتصر وجود هذين الحزبين على جبل لبنان ، بل تعداه إلى القرى والمدن فى الداخل . وقد استمرت هذه العصبية واضحة حتى القرن الثامن عشر ، إلا أنها تحولت بعد ذلك إلى نوع من الخصومات الأسرية التى تمت إلى الجذور الجنسية أو القومية . وقد اصطنعت القيسية علماً خاصاً بها أحمر اللون شارته قرنفلة

(١) تفشت الحزبية فى لبنان ، وترجع جذورها إلى ما قبل الفتح العربى لهذه البلاد فى القرن السابع الميلادى . فلقد انقسمت القبائل العربية فى سورية إلى فئتين : فئة القبائل المستقرة فى البلاد منذ أمد بعيد ، وفئة البدو القادمين حديثاً اليها طلباً للكلأ ورعى المواشى . وقد تخضرت الفئة الأولى المستقرة واندمجت فى حياة البلاد المتمدنة وأصبحت من أهل الحضر والمدر . أما الفئة الثانية فهى فئة البدو غير المستقرة وكانت تمر فى سورية فى مواسم معينة عابرة فهى مؤلفة من رحل يعيشون فى الخيام ودأبهم الانتقال والرحيل . ومعظم القبائل اليمنية الأصل التى إنزحت من اليمن إلى سورية فى موجات متعاقبة قبل الميلاد وبعده وخاصة على أثر انهيار سد مأرب استقرت فى البلاد واندمجت فى حضارتها فعرفت بالقبائل اليمنية . ومن أشهر هذه القبائل بنوغسان وبنوكعب ، وبنو تنوخ وغيرهم . أما القبائل شبه الرحل فأكثرها من الحجاز وأشهر هاقبيلة قيس . ودعيت هذه القبائل بالقيسية من قبيل تسمية الكل باسم الجزء البارز والأكثر شهرة . وبدأت كل من الفئتين تتخذ منذ الفتح العربى طابعاً حزبياً سياسياً منذ أيام معاوية . واستمر التناحر بين هذين الحزبين على مر الأجيال حتى عام ١٧١١ عندما سحق القيسيون اليمنيين فى معركة «عيندارة» فلم تقم بعدها لليمنيين قائمة.(انظر: فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٥١) .

حمراء ، فى حين اتخذت اليمنية علماً أبيض اللون شارته زهرة خشخاش بيضاء (١) . ورغم هذا الانقسام القيسى — اليمنى فى جبل لبنان ، فقد استطاع المعنيون اثبات نفوذهم فى لبنان الجنوبى . وكان ينافس المعنيين بنوعساف الذين فرضوا نفوذهم على لبنان الشمالى ، التابع لولاية طرابلس . وقد وقف بنو عساف إلى جانب العثمانيين فى معركة مرج دابق ، فكافأهم العثمانيون بمنحهم حكم كسروان وجبيل ، وجعلوا مركز حكمهم فى غزير (٢) . وبعد وفاة الأمير عساف فى عام ١٥١٨ ، حدث خلاف بين أبنائه . وفى عام ١٥٢٣ ، تولى الامارة الأمير منصور ، حفيد عساف ، فبقى فيها حتى عام ١٥٨٠ (٣) . وكانت تنافس آل عساف أسرة آل سيفا الكردية الأصل ، التى تمركزت فى منطقة طرابلس ، وحكمتها فترة طويلة بتأييد من العثمانيين ، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وكانت علاقة ولاة الشام بالأمراء المحليين فى ولايتهم تقوم على تحقيق الأمن وجمع المال الميرى ، واقتضى ذلك من الولاة أن يقوموا بعدة حملات لتنفيذ غرضهم . ففى اكتوبر عام ١٥٢٣ ، قام والى الشام بحملة ضد دروز الشوف وانتصر عليهم . وليس هناك من ذكر للأسباب التى دعت إلى هذه الحملة، ولكن يبدو أن العثمانيين، بعد أن أخمدوا ثورة الغزالى قبل ذلك بحوالى سنتين ، كانوا حذرين من زيادة سلطة الأمراء المحليين ، لاسيما وأن الدولة العثمانية كانت فى هذه الأثناء — فى عهد السلطان سليمان — فى أوج قوتها . وكانت أخبار انتصاراتها فى الجبهة الأوروبية بصفة خاصة ، مشجعة للولاة لاظهار قوتهم . إلا أن دروز الشوف ردوا على انكسارهم بأن

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى، بيروت ١٩٦٦، ص٥٥ .

(٢) اسطفان الدويهى ، تاريخ الأزمنة (١٠٩٥ — ١٦٩٩) ، نشرة الأب فرديناند توتل ، مجلة المشرق ، مجلد ٤٤ (١٩٥٠) ، ص ٢٣٦ .

(٣) الأب بطرس ضو ، تاريخ الموارنة الدينى والسياسى والحضارى، جونية ، ١٩٧٧ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .

قتلوا المسئول العثمانى لديهم ، وثاروا على الوالى الذى جرد حملة أخرى ضدهم فى عام ١٥٢٤ ، فتكت ونكلت بهم من جديد . ويبدو أن دروز الشوف قد أخلدوا إلى السكينة بعد هذه الانتصارات التى أحرزها والى الشام عليهم ، واستمروا كذلك طيلة القرن السادس عشر ، حتى قيام فخر الدين المعنى الثانى ، أمير بلاد الشوف ، وتحديه للعثمانيين .

**٢ - تولى فخر الدين الامارة والصراع من اجل التوسع (١٥٩٠ - ١٦١٣)**

فى عام ١٥٨٤ ، تضعضعت العلاقات السلمية بين الأمراء المحليين والعثمانيين عندما بدأت الولايات تشعر بضعف الامبراطورية العثمانية . فقد أمدت تطورات الأحداث المعنيين بأسباب القوة والتفوق فى الوقت الذى كانت تسير فيه أسرة آل عساف نحو التدهور والانقراض . وكان بنوسيفا يتطلعون إلى ما وراء بلادهم : فظلوا يتبعون آل عساف حتى قضوا عليهم نهائياً فى عام ١٥٨٠ ، وبذلك أصبح التنافس منحصراً بين آل سيفا فى طرابلس ونواحيها والمعنيين فى الشوف . وقد حاول يوسف سيفا مد سيطرته إلى بلاد قرقماز بن فخر الدين المعنى الأول(١٥٤٤ -١٥٨٥) ؛ ففى عام ١٥٨٤ دبر يوسف سيفا مكيدة لقرقماز ، إذ هاجم رجاله جماعة من الانكشارية فى جون عكار وهم فى طريقهم إلى الآستانة لتوصيل خراج مصر وفلسطين (١) . وادعى بنو سيفا أن للمعنيين يداً فى ذلك ، فأرسل السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) حملة تأديبية بقيادة والى مصر ابراهيم باشا توغلت فى الجبل والتحمت مع الدروز فى اقليم الشوف . وفر قرقماز إلى الجبال ، وكتب إلى الباشا رسالة أكد فيها طاعته وولاءه للدولة قال فيها :

«أنا أرغب كل الرغبة فى أن أقدم عليك ، وفى أن أقوم بخدمتك دائماً فى كل فرصة قد تكون فيها فى حاجة إلى مساعدتى لأنى أعلم بأنك

---

(١) طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان فى جبل لبنان ، بيروت ، ١٨٥٩ ، ص ٢٥١ .

تثق بالاحترام الذى أكنه للسلطان وانى أقوم بتأدية جميع الأموال ، الشيء الذى لم يفعله ابن منصور ، الذى قدم عليك فى أورشليم .. ومعك الآن ٩ من أعدائى ، وهم يرغبون فى الايقاع بى وأنا واثق من أن طلبك حضورى عليك يحمل فى طياته أمر اعدامى وخصوصاً وأنى أذكر أبى الذى قبض عليه باشا دمشق ، تحت ستار الصداقة ثم قتله غيلة ، وفى الحق انى لأحمل فى ذهنى صورة رأس أبى وهى مصغرة ، وتختلج وهى تتمثل بى فى ظلام الليل وفى وضح النهار ، وهى تحادثى وتدعونى لأن أتجنب البغاة ، وعلى هذا فلا أقدر أن أطيع مطالبكم وأنه ليؤلمنى فى هذا الصدد أننى سأظهر كأنى غير مطيع لأوامركم .. » (١) .

وأخذ الباشا يبذل ما فى وسعه لحمله على المثول بين يديه ، فلجأ إلى اللين بإنفاذ الرسل اليه ، وكان يريد بمراسلته اما أن يفلح فى حمله على القدوم عليه ، واما أن يضعفه بالتدريج بما يقدمه فى كل مرة من الهدايا والأسلحة .

وأمام هذا الالحاح من جانب ابراهيم باشا لم تر السيدة نسب — زوجة قرقماز حرصاً على مصلحة شعبها — بداً من أن تتقدم إلى الباشا لكى تبين له عذر قرقماز وترجوه أن يعفيه من طلب القدوم عليه . ولما فشل ابراهيم باشا فى اقتناص فريسته بالغدر والخداع ، نقض عهد الأمان ولجأ إلى العنف الصريح ، فأمر قواته باجتياح الشوف . ودمرت معظم قرى الشوف فى وقت قصير ، وعين الباشا ابن الحرفوش على البلاد ثم أقلع إلى استانبول محملا بالأموال والهدايا النفيسة بعد أن نجح فى اخضاع الجبل الذى عجزت عنه الدولة منذ زمن بعيد . أما قرقماز ، فقد هلك مريضاً فى مغارة جزين(٢) . وفى وسط هذه الأزمة العنيفة نشأ فخر الدين ؛ فلقد ولد حوالى عام ١٥٧٢ ،

---

(١) R. Ricault, *The History of the Turkish Empire*, 3 vols., (London, 1700), Vol. I, p. 693.

(٢) اسطفان الدويهى ، تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ، ١٨٩٠ ، ص ١٧٨ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى ، ص ٤٦ — ٤٨ .

وكاد أن يقضى عليه لولا أن السيدة نسب أنقذت الموقف، فهربت ولديها فخر الدين ويونس إلى بلونة فى كسروان عند أبى إصقر ابراهيم الخازن . وكان المكان مناسباً ، إذ أن أبا صقر قيسى ، هذا إلى أنه مشهور بالأمانة والتقوى (١) .

على كل حال ، نشأ الطفلان الصغيران عند آل الخازن ، فتعلم فخر الدين الفروسية وتثقف باللغة العربية ، وقرأ التاريخ ، وعلى الأخص تاريخ إمارته ، وتعلم التسامح الدينى بأوسع معانيه ، فالخوازنة موارنة ، ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا تنصير الأميرين . وفى حوالى عام ١٥٨٨ ، انتقلت بهما السيدة نسب إلى خالهما سيف الدين التنوخى فى أعبية بالشوف . وإلى جانب خالهما نشأ الأميران . ودخلا فى دور اعداد عملى ، وأخذا يتلقيان دروس الحكم العملية ، ويتدربان على السياسة ، فمال الأول إلى الحكم والادارة ، ومال الثانى إلى الحرب والقيادة . ولقد أيقظت اعتداءات ابراهيم باشا فى نفوس أهل الجبل — خاصة الموارنة والدروز — شعور البغض نحو النير العثمانى . وأخذ شيوخ الموارنة يدركون أنه لابد لانقاذ الجبل واستقلاله من الاتحاد مع آل معن والدروز ، مؤملين أن تتسع دائرة هذا الاتحاد فى المستقبل (٢) . ولقد راح آل الخازن وآل حبيش فى كسروان يعملون بنشاط فى سبيل تحقيق هذه الوحدة الضرورية . ولما كان من اللازم على سكان الجبل لكى يتمكنوا من رفع النير العثمانى أن يكون لهم زعيم مطلق ، فقد رأوا من الأوفق أن يكون واحداً من زعماء الدروز المتميزين بالصلابة والقدرة الحربية . وإلى جانب هذا فقد جعلت مأساة قرقماز من آل معن شبه زعماء وطنيين للجبل ؛ ولما كانت الدولة العثمانية قد اقتنعت ، من ناحية أخرى ، بما نال لبنان من التأديب بعد حادث جون عكار ، لم تمانع

---

(١) طنوس الشدياق ، المصدر السابق ، ص ٨١ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٤٤ — ٥٠

(٢) الأب بطرس ضو ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

من ولاية أحد أمراء آل معن ، فأصبح الطريق بذلك ممهداً لظهور شخصية قوية قادرة تتولى مقاليد الإمارة . ففى عام ١٥٩٠ بلغ فخر الدين أشده ، فتنازل سيف الدين التنوخى عن الوصاية وتولى فخر الدين حكم الشوف (١) .

ومهما يكن من أمر فقد اقتصرت ولاية فخر الدين فى البداية على الحدود القديمة ، فشملت الشوف ، وجزءاً من الساحل الفينيقى بما فيه صيدا . ولم يكن فخر الدين مجرد ناهب أو جامع إمارات ، بل كان له برنامج عمل يرمى إلى إيجاد وحدة وطنية ثابتة الدعائم ، موطدة الأركان . ولكى يحقق سياسته . فقد تزعم فخر الدين القيسية ضد آل سيفا وآل عساف وآل حرفوش وآل فريخ اليمنية وكان إلى جانب فخر الدين آل شهاب فى وادى التيم ، وموارنة كسروان من آل الخازن وآل حبيش . وأخذ فخر الدين يعمل على توحيد حلفائه من الدروز وآل شهاب والموارنة ، ثم رأى أنه يلزمه قوة حربية مستديمة ، فاتخذ آلافاً من السكمان (٢) ، وهم جند من المرتزقة يمتازون بالشدة فى القتال وبمعرفة الطرق والنواحى . وبدأ فخر الدين أولا بمنصور بن فريخ الذى كان صدراً لآل معن منذ حملة ابراهيم باشا ، والذى كانت سيطرته تمتد من نابلس إلى البقاع وأصبح أميراً للحج ، وأخذ يعسف برعاياه . ووجد فخر الدين فى عسف ابن ابن فريخ سبيلا إلى إيغار صدر باشا دمشق عليه ، فدبر له الآخر مكيدة وقتله فى إحدى الولائم ، وبهذا تخلص فخر الدين من أحد أعدائه ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢) سمى أفراد هذه القوة أيضاً بالسكبان ، وهى كلمة فارسية الأصل تتألف من مقطعين (سك) وتعنى (كلب) و(بان) وتعنى (صاحب أو حامى) ، وتعنيان معاً الكلابى ، أى الذى يقود الكلاب ويسير مع الأمير إلى الصيد . (أنظر : عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ، ص ٧٧ – ٧٨) . وكان السكبان يتقدمون فى الصيد ويتألف جندهم من ٣٤ أورطة . وبلغ عددهم عند المعنى مع الدروز نحو مائة ألف ، كما كان عند الجنبلاطى نحو ثمانين ألفاً من البندقيين (التفكجية) . (عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٦٥ – ٦٦ ) .

مستغلا بذلك الادارة العثمانية فى دمشق فى سبيل تحقيق أغراضه (١) .

وكان التنافس بين يوسف سيفا ومحمد بن عساف قد بلغ أشده فى شمال غربى الجبل . وقد انتهى هذا التنافس بمقتل ابن عساف وانقراض أسرته بعد حكم دام ٢٣٠ سنة (٢) . وهكذا بسط ابن سيفا نفوذه من بيروت إلى قرب أنطاكيا شمالا ، وأخذ ينكل بالموارنة حلفاء فخر الدين . وكان من الطبيعى بعد أن تاخمت أملاك ابن سيفا امارة فخر الدين أن يبدأ الاحتكاك بينهما . وقد نشب الصراع بين كل منهما فى وقعة دارت عند نهر الكلب عام ١٥٩٨ انتصر فيها فخر الدين وانتهت بتوليته بيروت . ولكن فخر الدين السياسى آثر الاتساع التدريجى ، فعقد صلحاً مع ابن سيفا وتخلى عن بيروت . إلا أن الصراع تجدد بين فخر الدين وابن سيفا ، فجرت وقعة جونية عام ١٦٠٥ التى انتصر فيها فخرالدين أيضاً ، وولى من قبله يوسف المسلمانى على غزير وأبو نادر الخازن على كسروان (٣) . ولقد استمرت المنازعات بين يوسف سيفا وفخر الدين عدة سنوات ، ثم تمكن فخر الدين أخيراً من أن يقضى على آل سيفا فى عام ١٦٢٧ (٤) . وكان آل سيفا . طوال هذه الفترة يمثلون شوكة فى جنب فخر الدين ، فقد حدوا من توسعه فى الشمال ؛ إلا أنه بقيت له حرية التوسع فى الشرق وفى الجنوب .

ولكن زوال آل فريخ — الذين كانوا يشكلون قوة عازلة حاجزة بين ولاة الشام وفخر الدين . وامتداد نفوذ هذا الأخير على اقليم البقاع الخاضع مباشرة لهؤلاء الولاة — زاد من الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين ، لاسيما

---

(١) محمد المحبى ، خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٨٦٩ ، ج ٤/٤٢٧ — ٤٢٨ .

(٢) طنوس الشدياق ، المصدر السابق ، ص ٣٨٢ .

(٣) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٤) حيدر الشهابى . غرر الحسان من حوادث أبناء الزمان ، القاهرة ، ١٩٠٠ ، ص ٦٢٢ — ٦٢٤ .

وأن المنطقة التى أصبح يسيطر عليها فخر الدين كانت تمر فيها الطرق التجارية التى تربط بين دمشق والساحل ، وبين دمشق وفلسطين ومصر ، وتتحكم فى سلامة قافلة الحج . وهكذا بدأت المشاحنات بين فخر الدين وولاة دمشق . ولكى يواجه فخر الدين خطر ولاة الشام فقد أقام عيوناً له فى فى استانبول لرعاية مصالحه فيها ، وجند جيشاً من الدروز والقيسية ، كما سبق الإشارة ، وحصن القلاع فى منطقته ، وقام باتصالات مع آل مديتشى — حكام توسكانا فى ايطاليا — للحصول على المساعدة العسكرية والفنية ولتنشيط تجارة بلاده معهم ، وخاصة تجارة الحرير التى كانت مزدهرة فى منطقة الشوف (١) . وكان فخر الدين يتمتع بتأييد الحاج كيوان نعمة ، وهو أحد كبار الانكشارية فى دمشق (٢) .

وفى ذلك الوقت ، كانت الدولة العثمانية محاطة بالأزمات الداخلية والخارجية ، ولم تكن لتخلص من أزمة حتى تواجهها أخرى . ففى مطلع القرن السابع عشر ، ظهر فى منطقة حلب بعض الأفراد الثائرين من أسرة جنبلاط ، وهى أسرة كردية الأصل تنتسب إلى جان بولاد (أى النفس الفولاذية) ، الذى حور اسمه إلى جنبلاط . وقد اشتهر من هذه الأسرة حسين باشا جنبلاط الذى عين فى أول أمره حاكماً على كلس . وفى عام ١٦٠١ عين حسين باشا جنبلاط والياً على حلب ، وكان يعتمد فى توطيد سلطته على جنده من السكبان ، وعلى دعم بعض أصحاب النفوذ فى استانبول ، مثل سنان باشا الذى أرسله السلطان لقتال قوات الشاه عباس الأول الصفوى (١٥٨٧ — ١٦٢٩) . ولكن العلاقات ساءت وقتئذ بين سنان باشا وحسين باشا جنبلاط بسبب تقاعس الأخير عن نصرة الأول أثناء قتاله مع الصفويين ،

---

(١) A. Ismail, *Histoire du Liban du XVIII^e Siècle à Nos Jours*, Vol. :I *Le Liban au temps de Fakhr—eddin II* (1590 — 1633), Paris, 1955, pp. 77— 78.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن كيوان ، راجع : المحبى ، خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، ج ١/١٨٧ .

مما أدى إلى هزيمة سنان فى عام ١٦٠٥ . وحين عاد سنان من حملته الفاشلة ، قتل حسين باشا جنبلاط فى أواخر عام ١٦٠٥ . وثار على بن أحمد بن جنبلاط لمقتل عمه ، وأخذ ولاية حلب عنوة ، وجمع جيشاً كبيراً من السكبان ، وامتنع عن دفع أموال الميرى . وقد تطوع يوسف سيفا — حاكم عكار وبلاد طرابلس — لدى السلطان العثمانى أحمد الأول (١٦٠٣–١٦١٧)، لقتال على باشا جنبلاط . وكان يوسف باشا سيفا يحاول ، بعد قضائه على آل عساف واتساع نفوذه ، أن يوطد سلطته بموافقة السلطان ، لاسيما وأن فخر الدين الثانى المعنى منافسه فى جبل لبنان ، كان هو الآخر يزداد نفوذاً . وقد عين السلطان العثمانى يوسف سيفا قائداً على عساكر الشام ، فبدأ يجمع قواته فى حماه ، حيث تحارب مع على باشا جنبلاط فى يوليو عام ١٦٠٦ . وقد هزم يوسف سيفا ، وفر بحراً إلى حيفا التى كان يحكمها الأمير أحمد طرابای ، وتحصن مملوكه يوسف فى قلعة طرابلس وعمه محمود فى حصن الأكراد .

وازداد على أثر ذلك نفوذ على باشا جنبلاط ، فأرسل إلى الأمير فخر الدين المعنى يطلب التحالف معه ، وتم ذلك على يد كيوان أحد كبار انكشارية دمشق وصديق فخر الدين (١) . واجتمع الحليفان عند نبع نهر العاصى ، ثم سارا لاحتلال طرابلس ومحاصرة دمشق حيث لجأ يوسف سيفا وأخذ يجمع القوات العثمانية من جديد . واستولت قوات على باشا على مدينة طرابلس ، باستثناء القلعة ، ثم توجه الحليفان نحو البقاع ، فرا ببعلبك ، ونصبا عليها يونس الحرفوش الذى عارضا به الفرع الحرفوشى الآخر الذى يتزعمه موسى الحرفوش المؤيد ليوسف سيفا . وكان أحمد شهاب ، حاكم وادى التيم ، يؤيد الأمير فخر الدين وعلى باشا .

ووصلت قوات على باشا جنبلاط وفخر الدين إلى منطقة العراد ،

---

(١) يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، بيروت ، ج ١ / ٢٧٠ — ٢٧١ .

وتجمع جند الشام فى وادى دمشق الغربى وجرت مراسلات الصلح بين الفريقين . ولكن بعض مشاغبى جند دمشق قطع الأمل فى نجاح مساعى الوفاق ، ولجأ على باشا إلى الدس والغدر ، فتفرقت فلول الجيش الدمشقى ودخل بعضهم قلعة المزيريب . وكان ابن سيفا فى تلك الأثناء متمارضاً فى دمشق ولم يخرج للقتال . وبدأ أهل المدينة يدركون ما جلبه عليهم ابن سيفا فلم يدعوه يفلت إلا بعد أن دفع لهم ١٠٠,٠٠٠ قرش ثم ولى الأدبار (١) . ولما علم على باشا بفراره ، سلط جنده وجند فخر الدين على المدينة فقاموا بالنهب أياماً . ثم انتهى الأمر بأن خرج وفد من كبراء دمشق للتفاوض مع على باشا وفخر الدين ، وبالفعل ارتد عنها على باشا عندما علم بهرب يوسف سيفا وبعد أن دفع له الدمشقيون المائة ألف قرش التى أخذوها من ابن سيفا . وبموجب هذه المصالحة ، تقرر إعطاء ٢٠,٠٠٠ قرش إلى فخر الدين . ثم افترق الحليفان ، إثر هذا الانسحاب ، فتوجه فخر الدين إلى بلاده ، وسار على باشا لحصار حصن الأكراد ، وأخيراً تم الصلح بينه وبين يوسف سيفا ، وتصاهرت الأسرتان ، وعاد على باشا إلى حلب (٢)

وقد زاد هذا الصلح من نفوذ يوسف سيفا ، لأنه يعتبر تحولا فى سياسة على باشا تجاه فخر الدين المعنى . وتقاسم النفوذ فى بلاد الشام كل من على باشا الذى عاد إلى حكم حلب (١٦٠٥ – ١٦٠٧) وامتدت سلطته حتى حمص ، ويوسف سيفا الذى امتد سلطانه على حمص والمنطقة الواقعة فى جنوبها وغربها ، ولكنها كانت من الناحية العملية تحت نفوذ على باشا . واستمر الأمر كذلك مدة عامين ، إلى أن انتهت الدولة العثمانية من حروبها فى المجر ، ووقعت مع النمسا معاهدة سيتفاتوروك ( Sitvatorok )

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ – ٨٤ .

فى عام ١٦٠٦ (١) ، فجهزت جيشاً بقيادة الصدر الأعظم مراد باشا للقضاء على على باشا جنبلاط وعلى ثائرين آخرين أقل شأناً فى منطقة حلب — سيواس . ومما تجدر ملاحظته أن الغرب المسيحى — ممثلا فى إمارة توسكانا الايطالية قد — حاول الاتصال بعلى باشا جنبلاط لمساعدته على اضعاف الدولة العثمانية ، ودفع خطرها عن أوروبا ، واستخلاص الأراضى المقدسة. وقام الماروني الحلبي فضلى بن يوحنا قريع (٢) بدور رئيسى فى المفاوضات التى دارت بين امارة توسكانا من جهة وعلى باشا جنبلاط والى حلب من جهة أخرى . وجاء فى الخطاب الذى وجهه الجراندوق فرديناند الأول أمير توسكانا إلى على باشا جنبلاط على يد ميخائيل قريع فى ٢٥ يناير عام ١٦٠٧ ما يلى (٣) : «ان وقوفكم الجرىء الشريف فى وجه آل عثمان الظلمة قد أكسبكم عطف جميع الأمراء المسيحيين وثناءهم . وهم يتمنون لكم من صميم أفئدتهم مزيد العز والفخار .أما نحن الدائبين فى مناوأة هذا العاتى الكبير ومضايقته بأغربتنا (٤) ومراكبنا ، فتجدونا مستعدين الاستعداد كله لشد أزر جميع الخارجين عليه ..» .

---

(١) E. Creasy *History of the Ottoman Turks* London, 1878, pp. 319 – 320.

(٢) جاء اسم فضلى قريع فى الوثائق الأوروبية والتوسكانية Michelangels Corai ميخائيل قريع .

(٣) بولس قرألى ، على باشا جنبلاط ، دار المكشوف ، بيروت، ١٩٣٩ ، ص ٢٤–٣٤، يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ٢/ ٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٤) الأغربة والغربان : جمع (غراب) ، من المراكب الحربية شديدة البأس التى استعملها المسلمون والفرنج فى العصور الوسطى فى الغارة والغزو فى حوض البحر المتوسط ، ويرجع استعمالها إلى العصور القديمة على عهد الرومان والقرطاجيين وغيرهم من أمم تلك العصور ، واستمر استخدام هذا الضرب من السفن كأحد القطع الحربية حتى زمن العثمانيين والدول الأوروبية المطلة على البحر المتوسط ، وتشير النصوص إلى استمرار استعمال الأغربة حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر . وكان الغراب يسير بالقلع والمجاديف ، ومنه الصغير والكبير ، ويحدد حجمه وضخامته عدد مجاديفه ، فأحفله ما كان يجره مائة وثمانون مجدافاً ، وأصغره تجدف به=

ووصل ميخائيل قريع إلى حلب فى أوائل ابريل عام ١٦٠٧ ، ودارت المفاوضات بينه وبين على باشا جنبلاط حتى ٣ اكتوبر من نفس العام ، وأسفرت عن مشروع معاهدة وضع نصه على باشا جنبلاط ووقعه وأرسله بواسطة ميخائيل قريع إلى أمير توسكانا ليوقعه هذا مع البابا وملك أسبانيا(١). ولكن فى السادس من اكتوبر عام ١٦٠٧ ، وصل الوزير العثمانى مراد باشا إلى أدنة على رأس عسكر «بلغ ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل» كما يذكر المحبي. وبعد أن تغلبت القوات العثمانية على الثائرين الصغار ، اصطدمت فى مرعش بقوات على باشا ، التى حلت بها الهزيمة رغم النجدات من السكبان التى تلقاها من ابن سيفا وفخر الدين . وقد قضى سليمان باشا ، والى الشام ، على قوات الثائرين من السكبان الذين هربوا فى تجاه الشام وروعوا سكانها . وقد زال نفوذ الأسرة الجنبلاطية فى منطقة حلب على أثر ذلك ، ولجأ بعض أفرادها فى عام ١٦٣٠ إلى حكام الشوف المعنيين ، نظراً لما كان بين الأسرتين من الصداقة القديمة ، ودخلوا فى خدمتهم . وبعد قرن من هذه الأحداث لمع اسم الجنبلاطيين فى بلاد الشوف ، واستفادوا من ضعف الأمراء الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان بعد المعنيين (٢) .

وبعد القضاء على الثائرين وزعيمهم على باشا جنبلاط فى منطقة حلب ، انتقل مركز الثقل إلى بلاد الشام الجنوبية حيث الثائر الآخر الأمير فخر الدين المعنى الثانى . ويختلف فخر الدين عن على باشا والثائرين الآخرين فى الشمال بأنه ينتسب إلى أسرة من الأمراء فى جبل لبنان اعترف العثمانيون بسلطتهم

---

=عشرة مجاديف ، انظر تعريفاً وشرحاً وافيين لهذا النوع من السفن ، فى : درويش النخيلى ، السفن الاسلامية على حروف المعجم ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٤ — ١١٢ ؛ انظر ما فى هوامش هذه الصفحات من مصادر ومراجع .

(١) يوسف ضو ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ — ٢٣٤ . راجع نص المعاهدة فى الملحق المرفق .

(٢) بولس قرألى ، المرجع السابق ، ص ٨٤ — ٨٧ .

وبوضعهم الخاص داخل نطاق الامبراطورية . كما أن بعد منطقة فخر الدين ، وانعزالها نسبياً ، وطبيعة أرضها ، بالإضافة إلى تاريخها ، ساعد على استمرار بقاء الأمراء المحليين فيها . أما منطقة حلب التى ثار فيها على باشا جنبلاط والتى شجع على ظهور الثائرين فيها تعدد أقوامها وطبيعة جغرافيتها ، فقد كانت — فى الوقت نفسه — سبباً هاماً فى القضاء على الثائرين نظراً لقربها من الأناضول وعلى الطريق الرئيسية المؤدية إلى الجبهة الشرقية والتى كثر اجتياز الجيوش العثمانية لها لقتال الصفويين وخلفائهم الأفغانيين . ولم تكن الدولة العثمانية لتتسامح مع الثائرين فى منطقة حلب خوفاً من اضعاف جبهتها ضد الصفويين وخلفائهم ، ولكى لا تترك مجالا لهؤلاء لاستغلال الوضع الداخلى وتأييد الثائرين .

وتحولت الدولة العثمانية بعد صلحها مع النمسا فى عام ١٦٠٦ والقضاء على قوات على باشا جنبلاط فى عام ١٦٠٧ إلى مقاومة فخر الدين المعنى الذى كان قد مد سلطته إلى البقاع وصفد وبيروت وصيدا وتحالف مع على باشا . فكلفت ولاة الشام بالتصدى له خوفاً من ازدياد سلطته ، وتهديده لطريق الحج وطريق التجارة مع مصر ، وطعنه العثمانيين من الخلف وقت انشغالهم فى حربهم مع الصفويين . وقد عين فى ذلك الوقت أحمد باشا الحافظ على ولاية الشام فى عام ١٦٠٩ ، وظل يحكمها حتى عام ١٦١٤ ، وركز على مقاومة فخر الدين الذى شكل خطراً على سلطته . وبدأ أحمد باشا الحافظ بإثارة الأمراء المحليين المعادين لفخر الدين ضده ، فشجع بنى سيفا ، حكام طرابلس ، وأثار الاضطرابات ضد فخر الدين فى منطقة البقاع — عجلون الخاضعة لسيطرته ونفوذه . وحاول أحمد باشا الحافظ القضاء على الأمير يونس الحرفوش حاكم بعلبك ، والأمير أحمد شهاب حاكم وادى التيم ، وهما من حلفاء فخر الدين ، إلا أن ارسال فخر الدين النجدة لهما أرهب أحمد باشا .

وفى عام ١٦١١ عين نصوح باشا ، وهو عدو لفخر الدين (١) ، صدراً أعظم فى استانبول ؛ فحاول الحد من نفوذ فخر الدين ، ودعم أحمد باشا الحافظ فى محاولته تحقيق ذلك. وأخذ أحمد باشا فى عام ١٦١٢ يثير المشاكل فى وجه فخر الدين ؛ فخلع حمدان قانصوه — وهو موال لفخر الدين — عن عجلون ونابلس والكرك وولاها لابن فريخ . ثم عزل الشيخ عمر شيخ عرب المفارجة عن حوران ، وكان أيضاً موالياً لفخر الدين وأعطاها لرشيد شيخ عرب السردية . فلجأ الأميران المعزولان إلى فخر الدين وطلبا نجدته ، ولكن فخر الدين لم يتعجل فى نجدتهما ، بل آثر التريث والحذر وأخذ يسعى لدى الدولة لمصلحتهما ، فأرسل مصطفى كتخداه إلى استانبول لكى يعرض الأمر على رجال السلطان . ولكن كيوان ، صديق فخر الدين ، حرضه على سرعة نجدة المعزولين . فتورط فخر الدين وأرسل ابنه علياً على رأس قوة فلاقت عسكر دمشق عند الزيريب فى عام ١٦١٣ . وانهزم جند الشام وحلفاؤهم بقيادة ابن فريخ . ودفع استمرار المناوشات بين الفريقين فخر الدين إلى ارسال مدد عدته ١٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة حسين اليازجى (٢) ، فلم يقو جند الشام على القتال ، واضطر إلى التراجع بعد أن ثبت ابن قانصوة فى عجلون وعمر فى حوران .

وهكذا لم يلزم فخر الدين الحذر ، فتورط فى تحريض كيوان على قتال جند الشام ، وفى تلك الأثناء كان كتخداه فى استانبول قد نجح فى الحصول لفخر الدين على إمرة نابلس وإمرة الحج الشريف ؛ ولكن وصول أخبار فخر الدين إلى الشام ، ووصول شكايات أحمد باشا الحافظ وعروضه ومبالغته فى خطر فخر الدين واتهامه بمحاولة حصار دمشق ، واتصاله الدائم بالغرب المسيحى ، قد أدى إلى صدور الأوامر العالية بتجهيز القوات للقضاء عليه (٣) ؛

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

فجعل أحمد باشا الحافظ سرداراً على القوات العثمانية التي تكونت من باشاوات ديار بكر وقرمان والرها وطرابزون وصناجق كردستان مع قوات من الانكشارية . ووصلت القوات البرية إلى الشام. وإزاء هذه الجموع الحاشدة، لم يقو حلفاء فخر الدين على المقاومة ، ورأوا انقاذاً لأنفسهم من الهلاك المحتم أن يتقدموا بالطاعة إلى الباشا ، وهو مافعله يونس الخرفوش حاكم البقاع ، وأحمد وعلي الشهابيان مقدما وادى التيم . وبذلك ازداد مركز فخر الدين حرجاً ، فأخذ يبذل جهده لانقاذ الموقف . فحصن قلاعه ووضع بها الجند والذخائر والمؤن الكافية لخمس سنوات ، وجعل على بانياس حسين اليازجي ، وعلى الشقيف طويل حسين .

ثم أخذ فخر الدين يسعى أيضاً إلى انقاذ الموقف بالسلم والسياسة ، فعين وفداً من شيوخ وعلماء صفد وصيدا وبيروت، وكان بينهم أحمد الصفدي مؤلف «تاريخ فخر الدين بن معن» (١)، وأرسله إلى دمشق في طلب الصلح . فتقدم الوفد إلى ديوان الباشا ، وعرضت رسائل فخر الدين فأعلن الباشا استعداده للصلح والعفو ولكنه اشترط قدوم فخر الدين بنفسه ، وأن استجاب إلى ذلك فانه يقرره على بلاده (٢) . ولم ير فخر الدين سبيلا

---

(١) هو أحمد محمد الخالدي الحنفي ، نشأ في صفد ، ورحل في الجزء الأخير من القرن العاشر الهجري إلى القاهرة لتلقي العلم حيث درس الفقه والحديث والتفسير والتاريخ . وعندما عاد إلى صفد درس وأفتى وناب في القضاء ، وتوفي عام ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م . وكان الخالدي معاصراً لفخر الدين وإشترك في بعض الحوادث . ويتناول تاريخه عن فخر الدين الحوادث ما بين ١٠٢١ هـ/١٦١١ م و ١٠٣٢ هـ / ١٧٣٢ م وهو تاريخ مفصل للحوادث في سورية ولبنان . كما احتوى مؤلفه على وصف دقيق لحياة فخر الدين ومشاهداته في الغرب . فسرد طائفة من « العجائب » كما رآها شرقي لأول مرة .

(٢) قال الحافظ لوفد فخر الدين « المعنى مراده الصلح ولكن لو ملأ هذه الخيمة ذهباً لا يمكن ذلك ما لم يدس على هذا البساط . وحق نعمة السلطان لئن جاء إلى هنا لا قررن عليه بلاده وأنعم عليه بما لم يحصل لأحد من قبله فأرسلوا إليه وأعرضوا هذا الكلام عليه » . ( عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ ) .

لتحقيق ذلك وهو يثق بغدر الترك ، فرحل مع كيوان إلى طبرية . وسير الباشا قواته لمنعه من الهروب ، والتقت قوات الشام بقوة لابن معن عند جسر الخامع كانت تحفظ الطريق ، وظهر الدمشقيون . وتراجع فخر الدين إلى قلعة الشقيف . وعوضاً عن قدوم مدد توسكانى لنجدة فخر الدين ، إذ بعمارة بحرية عثمانية تصل صيدا بقيادة محيي الدين باشا رودس ، لحصار فخر الدين بحراً . ولكن القوات البحرية لم تكن شديدة الخطر على فخر الدين. فلقد كان محمد باشا القبطان يميل إليه ، لسابق خدمته إياه عندما مر ببلاده معزولا عن مصر . واجتمع فخر الدين بمحيي باشا عند نهر صيدا ، وأخذ يشرح له تعدى الحافظ وإثارته الفتن مع الوفاء له بالأموال .

وفى ذلك الوقت ، حدثت تطورات خارجية خففت الضغط عن فخر الدين ، إذ أن سفناً صقلية هاجمت سفناً عثمانية بالقرب من Lcio وغنمت منها خراج بلاد المورة .فاضطرت العمارة التركية المحاصرة للشاطىء الفينيقى إلى الابتعاد عن ساحل الشام لكى تشترك فى صد قراصنة صقلية . وعلى هذا أصبح طريق البحر مفتوحاً أمام فخر الدين . وعقد الأمير مجلساً عند الدامور ، جمع فيه أهله وأعوانه ورأى حرج موقفه ، وضعف قواته عن المقاومة ، وتعددت الآراء ازاء الموقف ، فكان هناك رأى يقضى بوجوب الحرب ،ورأى يميل إلى الحصول على رضا السلطان ببذل الأموال . وكان من رأى السيدة نسب أن يسافر فخر الدين بنفسه إلى استانبول لتقديم الولاء والطاعة ونيل العفو . وأخيراً تغلب رأى كيوان الذى يقضى بالسفر إلى توسكانا . فعهد فخر الدين إلى أخيه يونس وابنه على بالحكم ، وجعل مقره دير القمر ،وجعل حسين اليازجى سرداراً على قوات آل معن . وتمكن كيوان عن طريق كردانا — قنصل فرنسا فى صيدا — من استئجار سفينة فلمنكية وأخرين فرنسيتين ، ونزل فخر الدين ومعه زوجته خاصكية فى السفينة الهولندية واستقل إحدى السفينتين الفرنسيتين أخوها

سيدى على وقنصل فرنسا والخدم، فى حين ركب الأخرى كيوان وعائلته.. وبدأت الرحلة فى ١٥ سبتمبر عام ١٦١٣ .

### ٣ — لجوء فخر الدين الى الغرب المسيحى (١٦١٣ — ١٦١٨) :

كان يحكم إمارة توسكانا الايطالية — كما أشرنا من قبل — الجراندوق فرديناند الأول (١٥٨٧ — ١٦٩٨) ، الذى اختمر فى ذهنه فى ذلك الوقت فكرة انجاز عدة مشروعات فى البحر المتوسط وفى سورية تحركه فيها عوامل اقتصادية وأخرى دينية بغرض تنمية العلاقات التجارية مع الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس (١) . وبعد نكبة على باشا جنبلاط ، اتجه اهتمام أمير توسكانا إلى توطيد العلاقات مع الأمير فخر الدين المعنى الثانى (٢) . فارسل الأمير فرديناند بعثة أخرى لتتعرف على طبيعة ونتائج الحوادث فى سورية ، فاتصلت البعثة التوسكانية بفخر الدين الذى دعاها إلى صيدا . وعرضت عليه البعثة مساعدة توسكانا بالاشتراك مع البابا وأسبانيا لكى يحتفظ بإمارته ويستمر على حاله من الاستقلال ، فرحب فخر الدين بهذه المساعدة المعروضة عليه . وانتهى الأمر فى عام ١٦٠٨ بعقد معاهدة بين فرديناند الأول والأمير فخر الدين جاء فيها :

١ — صرح فخر الدين بعزمه على احتلال دمشق والقدس وتسليمها إلى أمير توسكانا .

٢ — ليتمكن الأمير اللبنانى من ذلك طلب :

(أولا) أن يضع الجراندوق تحت تصرفه خبيراً يصب له اثنى عشر مدفعاً مع توابعها .

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ — ١٩٢٠) ، مطبوعات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ — ٥٠ .

(ثانياً) أن يستغل الأسرى التوسكانيين الثلاثة من الوزير مراد باشا لمعرفتهم قلاع فخر الدين معرفة تامة وهذه القلاع إذا تم تحصينها وتجهيزها بالمدافع والذخائر والسلاح صمدت أمام كل قوات الأتراك .

(ثالثاً) أن يفوز الجراندوق من البابا ببراءة يأمر فيها الموارنة أن يقفوا بجانبه فى الحروب القادمة .

(رابعاً) أن يضع تحت تصرفه فى ميناء صيدا مركبين يستخدمهما فى تبادل الرسائل والبعثات معه وتهريب خزينته إلى توسكانا عند الحاجة، وغير ذلك .

(خامساً) أن يزوده بتذكرة مرور تتيح له الركوب إلى توسكانا متى لزم الأمر (١)

وأخذ الجراندوق فرديناند يبذل ما فى وسعه لكى يساعد فخر الدين ضد الباب العالى تحقيقاً لأغراضه من حيث نشر التجارة وبسط النفوذ التوسكانى فى الشرق الأدنى . ولم تغير وفاة فرديناند فى عام ١٦٠٩ شيئاً من مشروعات توسكانا نحو الشرق ، فان خلفه كوزيمو الثانى (١٦٠٩ — ١٦٢١) سار على نفس النهج . فأرسل سفناً محملة هدايا من البنادق ومعدات القلاع والمواد المتفجرة وغير ذلك . وأرفق رسالة إلى فخر الدين الثانى مؤرخة ٢٢ سبتمبر عام ١٦٠٩ يعلن فيها عن رغبته فى استمرار الصداقة مع توسكانا وسورية وتثبيت المعاهدة السابقة . وفى نفس العام أيضاً أرسل البابا بولس الخامس كتاباً إلى فخر الدين يشكره على اهتمامه بالمسيحيين خاصة الموارنة . وأرفق البابا بالكتاب هدية إلى الأمير وبسيف إلى الشيخ يونس حبيش . وحمل كل ذلك إلى لبنان سركيس مطران دمشق . وفى عام ١٦١١ ، انتدب فخر الدين المطران جرجس مارون ، أسقف نيقوسيا

---

(١) يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ١/٢٧٧ — ٢٧٨ .

المارونى ومعتمد البطريرك المارونى لدى البابا ، سفيراً له لدى بلاط توسكانا والبابا مكلفاً إياه بإجراء مفاوضات لعقد معاهدة هدفها تنظيم حملة عسكرية لانتزاع الأراضى المقدسة من الدولة العثمانية (١) . ولما ضايقت الحملة العثمانية بقيادة أحمد باشا الحافظ الأمير فخر الدين فى عام ١٦١٣ ، اتجه الأخير إلى توسكانا حيث عرض على كوزيمو مطالب شعبه وأمله فى المساعدة فوعده خيراً . ووجد الغرب المسيحى أن التجاء أمير لبنان إلى توسكانا وطلبه مساعدته فرصة ملائمة لتحقيق حملة أوروبية نحو الشرق . فأخذ أصحاب الأحلام من ساسة فلورنسة يعرضون الموضوع على كوزيمو . وأوفد كوزيمو بعثة إلى الشرق لمعرفة أحوال إمارة فخر الدين. وقابلت البعثة ، التى تنكر أفرادها فى زى تجار ، الأمير يونس ، وزارت قلاع نيحا والشقيف وبانياس .

وبعد رحيل فخر الدين ، خلفه ابنه على فى إمارة الشوف ، وكان يساعده عمه الأمير يونس المعنى . وقد عاد أحمد باشا الحافظ مع قواته إلى دمشق بعد أن أخذ بعض الرهائن من المعنيين ، وفرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال . ولم ينقطع العثمانيون عن محاولاتهم لإضعاف قوة المعنيين بعد هرب فخر الدين . وكان هدفهم هدم قلعتى شقيف وبانياس اللتين تحصنت فيهما قوات المعنيين والسكبان المستخدمين لديهم . وكان العثمانيون يرون أن تحقيق هذا الهدف من شأنه القضاء على مراكز المقاومة والحصار المعنية . وقد حضرت إلى دمشق قوة عثمانية بقيادة مؤمن باشا ، حاكم قونية ، وذلك فى ٢١ أغسطس عام ١٦١٤ ، لمساعدة أحمد باشا الحافظ فى احتلال القلعتين والقضاء على المعنيين ، بعد أن أشيع أن فخر الدين قد عاد من فلورنسة . وقامت القوات العثمانية بحملة على بلاد الشوف أحرقت خلالها كثيراً من القرى . وكان حسين باشا بن يوسف باشا سيفا يساعد

---

(١) P. Dib, *Histoire de l'Eglise Maronite*, Beyrouth, 1962, II, p. 67.

العثمانيين على قتال المعنيين . وقد عزل أحمد باشا الحافظ عن ولاية الشام في عام ١٦١٤ ، قبل أن يتم له تحقيق هدفه في احتلال قلعتي شقيف وبانياس. وتعايش ولاة الشام من بعده مع علي بن فخر الدين الذي قبل بدفع مال الميري لهم . وقد صدرت أوامر من استانبول في عام ١٦١٤ بانشاء ولاية صيدا ، وتتألف من صنجقي صيدا(مع بيروت) وصفد ، لإحكام الطوق على المعنيين ، ولكن ليس هناك من دليل آخر على أن هذه الولاية قد وجدت بالفعل في عام ١٦١٤ ، أو أنها استمرت في السنوات التالية . ولم تظهر ولاية صيدا بشكل ثابت حتى عام ١٦٦٠ .

وبينما كانت جهود علي وعمه يونس للحفاظ على كيان الامارة المعنية تسير بخطى ناجحة ، كانت مفاوضات فخر الدين مع توسكانا تسير في متاهات معقدة . ففي عام ١٦١٤ ، رجعت البعثة التوسكانية من الشام بعد أن درست أحوال إمارة فخر الدين ، وعاد معها أفراد من أتباع الأمير من بينهم الشيخ خطار الخازن الذي بقي معه حتى عودته إلى لبنان عام ١٦١٨ (١) . وقدمت البعثة تقريراً مفصلا عن حالة الامارة (٢) . وكان أصحاب الأحلام في توسكانا في ذلك الوقت يهتمون بالأحوال السياسية

---

(١) يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ١/٢٩٠ – ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١/٢٩١ – ٢٩٣

Giovanni Mariti, *Voyages dans L'Isle de Chypre, La Syrie et La Palestine avec l'Histoire Generale du Levant*, Traduit de L'Italien, vol. I, Prsis, 1791, pp. 132 — 138.

كان المؤرخ الايطالي ماريتي (١٧٣٦ – ١٨٠٦) مطلعاً على الأوراق والوثائق والمعاهدات التي دارت بين فخر الدين المعني وحكومات الدويلات الايطالية المستقلة ، ولاسيما ما في وثائق فلورنسة الرسمية ، لأنه قيمها وعرف مضمونها . ولذلك فان كل ما نشره في تاريخه الايطالي عن فخر الدين *Istoria di Faccardino Grand Emir dei Drusi*, من الوثائق والرسائل موثوق به لاشك فيه .

فى سورية ويطمحون إلى إنشاء الدول فيما وراء البحار ؛ ويدفعهم فى ذلك العامل الدينى من حيث الرغبة فى استرجاع الأراضى المقدسة ، ونقل القبر المقدس من بيت المقدس إلى كنيسة سان لورنسو فى فلورنسة التى بدأها كوزيمو الأول عام ١٥٦٨ . ولكن كوزيمو الثانى لم يكن يعبأ بمثل هذه الأمانى بقدر ما كان يعنيه تقدم توسكانا الاقتصادى والسياسى ، وبرغم أنه لم يعارض هذه الفكرة المنتشرة فإنه أراد أن يتخذ من الشعور والحماس الدينى أداة لتحقيق مشروعاته السياسية . ورأى كوزيمو أن يقوم بخطة عملية ، واعتزم التدخل بإرسال بعض السفن المسلحة . وقوة حربية مع معداتها من المدفعية ، وهدف بذلك أن يحرز بعض النصر مما يدفع البابا وأسبانيا إلى مساعدته للقيام بحملة مشتركة . ولكن فخر الدين بدأ يتردد ، وقام تردده على عدة بواعث ، فلقد تنازعته عدة عوامل نفسية ، إذ وصلته أخبار عن استقرار أحوال بلاده . وكان يخشى الترك ووقوعه فى الأسر ، ويخاف على شعبه عسف العثمانيين . فأخذ كوزيمو يهدئه ويخفف عنه ، واتضح له انه ليس من المحقق عملياً تنفيذ مشروع الحملة السورية . وانتقل فخر الدين من توسكانا إلى صقلية ، وأبدى رغبة فى معرفة أخبار بلاده . فقبل مطلبه وأصدرت الأوامر للقبطان بعدم السماح له بالنزول إلى البر لضمان رجوعه وعودته . واستقل فخر الدين السفن وقصد المياه السورية ، فوصل إلى مكان بين صور والناقورة وتمكن من الاتصال بأهل الشوف . وعرف فخر الدين أخبار إمارته وكيف أن الظروف لم تزل حرجة ؛ وأن الفرصة لم تسنح بعد لرجوعه وتسلمه مقاليد الامارة (١) .

وعاد فخر الدين إلى توسكانا ، ولكنه شعر أن الاقامة هناك أصبحت لا قيمة لها وأن العودة إلى امارته خير له ، وأن التفاهم مع السلطان العثمانى

---

(١) عن تلك الزيارة الخاطفة إلى لبنان انظر : عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ — ١٤٩ .

أكثر حفاظاً له على امارته من التعاون مع هؤلاء الساسة الأوروبيين . وعندما كان فخر الدين يلح فى العودة ، يقال ان الأسبان عرضوا عليه التنصر ، إذ أخبر حاكم نابولى ناصر الدين ، أحد رفاق الأمير فخر الدين «أن ملك أسبانيا أرسل لنا كتاباً يقول فيه أن كان الأمير فخر الدين يدخل فى ديننا نوليه حكماً أعظم من إمارته ونعطيه أضعاف ما يعطيه له سلطان المسلمين . وإن كان لا يرضى بذلك فله الخيار أن يقيم فى هذه الديار أو يرجع لبلاده – فرجع ناصر الدين وأخبر الأمير بذلك فقال له ارجع واشكر من أفضال الدوقا وسلطان الأسبان وقل لهم اننا لم نأت إلى بلادهم لنطلب حكماً أو نغير ديننا بل جارت علينا الحكام فجئنا لبلادهم نحتمى بها ، فإن رضوا بنا أقمنا وإن أرسلونا لبلادنا فهو المراد » (١) . وكان الجراندوق يتلكأ فى اعطائه الموافقة النهائية حتى هدد فخر الدين بأن ينسف السفينة التى وضع فيها زوجته وأفراد أسرته بالبارود إن لم يصدر الجراندوق التصريح . وصدرت أخيراً موافقة الجراندوق ، وكانت اتصالات فخر الدين بالباب العالى قد أثمرت وصدر عنه العفو ، وعاد فخر الدين إلى إمارته فى عام ١٦١٨ .

وهناك مجموعة من الأسباب دفعت السلطان العثمانى إلى إصدار فرمان العفو عن الأمير فخر الدين ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

(أولا) لم يكن فى استطاعة الدولة العثمانية حكم لبنان حكماً مباشراً ، ومن ثم كانت فى حاجة إلى أمير يتولى شئونه ويتعهد بجمع الميرى منه . ولقد حاولت الدولة العثمانية تدعيم قوة الحزب اليمنى لكى يتفوق على الحزب القيسى ، ولكن الحزب اليمنى فشل فى اخضاع القيسية ، بل على العكس أثبتت القيسية أنها أرسخ قدماً وأقدر على الحكم والإدارة فى أصعب الظروف

---

(١) يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ١/٣٠٢ – ٣٠٣

الأمر الذى جعل السلطات العثمانية تنقل رضاها على الحزب اليمنى إلى الحزب القيسى ، وبالتالى أصبح فخر الدين المعنى أقرب إلى الحكومة العثمانية من أى وقت مضى ، خاصة إذا قبل الخضوع للسلطان العثمانى وأعلن ذلك . وكان فخر الدين مستعداً كل الاستعداد — فى ذلك الوقت — لأن يعلن ذلك .

(ثانياً) تمكنت الإمارة المعنية أثناء غياب فخر الدين (١٦١٣—١٦١٨) من أن تقف على قدميها ، ولكن السلطان العثمانى أراد أن ينهى حالة التمرد التى كانت سائدة فى الإمارة ضد الدولة ، وأن يعيد الزعيم القوى إلى إمارته حتى يفرض استقراراً أكثر ثباتاً . وكان من أهداف السياسة العثمانية استقرار هذه المناطق الداخلية .

(ثالثاً) اقتطعت الدولة العثمانية فعلا أجزاء مهمة من الامارة المعنية ، مثل وضع اقليم البقاع تحت سيطرة والى دمشق ، واقتطاع السهل الساحلى من الإمارة ، وبذلك يصبح من المتعذر على الأمير فخر الدين الاتصال بالدول الأوروبية .

(رابعاً) كان التغيير فى رجال الحكم فى العاصمة العثمانية عاملا مهماً فى اتاحة المناخ الملائم لتفهم حقيقة أوضاع الإمارة المعنية ، وامكانية الافادة من الأمير فخر الدين المعنى بدلا من مناصبته هو والإمارة المعنية العداء الذى يكلف خزينة الدولة العثمانية .

### ٤ — عودة فخر الدين وتجدد الصراع مع الدولة العثمانية (١٦١٨—١٦٣٥)

عاد فخر الدين بعد غياب دام خمس سنوات ، فعم السرور البلاد ، وهرع القوم إلى لقائه والترحيب به ، وأخذ يتنقل من عكا إلى صور ثم إلى صيدا . وقدم عليه الأمراء والمشايخ يقدمون له الهدايا . ولكنه رفض هدية ابن سيفا بسبب ما كان بينهما من تنافس ، وبسبب امعان آل سيفا فى احراق ونهب الشوف أثناء حملة أحمد باشا الحافظ ، وقال غاضباً :

نحنا صغار وفى عين العدو كبار
انتوخشب حور نحنا للخشب منشار
وحق طيبة وزمزم والنبي المختار
ما بعمر الدير (١) إلا من حجر عكار (٢)

وحينما رجع فخر الدين ، وجد إمارته قد عادت إلى النمو والاستقرار من جديد . فاختلال الدولة ومشاغلها العديدة وسرعة تغيير الحكام قد غيرت سياسة العثمانيين نحو آل معن ، وأقنعتهم بضرورة الاستمرار فى تعقبهم . ثم إن تطورات الأحداث فى سورية نفسها قد أدت أيضاً إلى قيام آل معن بالتوسع لحساب الدولة وبأوامر الباب العالى . فتسلم فخر الدين الإمارة وهى على حال مستقر ، واستأنف نموه الوئيد .

وبدأ فخر الدين يمد نفوذه من جديد على المناطق المجاورة للشوف . فاصطدم بيوسف سيفا ، والى طرابلس . وكان ابن سيفا يكسر الأموال السلطانية ، فكانت الدولة تعزله عن طرابلس وتنقص من إمارته ، ثم كان يبذل المال فيرجع إلى مقره ، وظل الحال على هذا النحو فى السنوات التالية حتى وفاته عام ١٦٢٤ . وكان فخر الدين له بالمرصاد ، فجرد إليه عدة حملات لحساب الدولة العثمانية وتنفيذاً للفرمانات السلطانية . ففى عام ١٦١٨ عين عمر باشا والياً على طرابلس ، فعصى يوسف سيفا أوامره ولم يدفع الأموال بانتظام . فاستنجد عمر باشا بفخر الدين لإرغام ابن سيفا على إطاعة الأوامر . وأعد قواته وتقدم شمالا إلى نهر ابراهيم ثم إلى جبيل ، فحاصر قلعتها ثم أخذ يطوف أنحاء طرابلس وعكار . فلجأ ابن سيفا إلى قلعة الحصن ، فحاصره فخر الدين فيها . ووصلت إلى فخر الدين امدادات من على الشهابى ومن ابن الحرفوش ، ولما اشتد الأمر على ابن سيفا استنجد

---

(١) دير القمر
(٢) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ص ، ١٧٠ – ١٧١ .

بباشا الشام فأجابه ، وانتهى الأمر بدفع ابن سيفا الأموال . ثم دفع فخر الدين أموال السلطنة ، وهو فى هذا كله يؤدى الواجب وينفذ الأوامر فأرسلوا يشكرونه على بسالته ، وأعطاه عمر باشا ولاية البترون وجبيل . وبذلك عاد الأمير إلى بيروت ظافراً (١) .

ولكن التنافس بين آل سيفا وآل معن لم يقف عند ذلك الحد ، فسعى ابن سيفا إلى إثارة الدولة العثمانية على فخر الدين . ولكن سرعان ما انقلب رضا الدولة على ابن سيفا ، فصدرت أوامر جديدة لفخر الدين بجمع الأموال من ابن سيفا ، وتقدم فخر الدين فى عام ١٦٢٠ لتنفيذ الأوامر من جديد . وطلب من ابن سيفا أن يبيعه أملاكه من مخلفات آل عساف فى بيروت وأنطلياس وغزير ، فقبل . وأوهمه أنه بذلك يخفف عنه جمع أموال الدولة كلها ، ولكنه كان فى ذلك يخادعه . فلم يلبث فخر الدين بعد أن أخذ تلك المخلفات العسافية أن راح يطالبه بكل المتأخر ، وتقدم لمهاجمة طرابلس ذاتها . وحاصرت قوات فخر الدين القلعة . وطبق فخر الدين ما رآه فى الغرب ، فأمر جنده من السكبان بعدم التعرض للأهالى الآمنين بسوء . وطال الحصار والتراشق بالرصاص فهجم فخر الدين بنفسه كالبرق الخاطف وتبعه جنده دفعة واحدة على متاريس جند ابن سيفا . والتحم الفريقان بالسيف ، وانتهت المعركة بانتصار فخر الدين الذى دخل طرابلس منتصراً . واستعان فخر الدين بسفن فرنسية لحصار ابن سيفا بحراً ومنع الامداد عنه والحيلولة دون هروبه . وكان ابن سيفا لا يفتأ يبذل وسعه لدى الدولة العثمانية فيشكو ويتذلل ويعد بدفع ما عليه من الأموال . واتهم فخر الدين برغبته فى امتلاك طرابلس لنفسه . وأخيراً وصلت إلى طرابلس سفن عثمانية ومعها أوامر سلطانية بوقف هجوم فخر الدين على ابن سيفا وبتثبيت الأخير فى طرابلس . وامتثل فخر الدين للأوامر وعاد إلى بلاده .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٢ – ١٧٩ .

ولقد أدت فوضى الادارة العثمانية وعزل وتولية الحكام إلى استمرار الصراع على باشوية طرابلس . فعاد عمر باشا من استانبول واليا على طرابلس ومعه أحكام بمساعدة فخر الدين فى تنفيذ الأوامر . فأعد فخر الدين قواته من جديد واضطر يوسف سيفا للخروج من طرابلس إلى عكار . غير أن الأوامر نقضت وعاد يوسف سيفا إلى طرابلس . ولكن فخر الدين نال رضا الدولة العثمانية لما أظهره فى كل هذه المرات العديدة المتتالية من التفانى فى خدمة الدولة ؛ وتمكن بما بذله من أموال من أن يحصل على نابلس لكتخداه ، وعلى عجلون لابنه حسين . واستمر عزل ابن سيفا وتولية عمر باشا بدون انقطاع . واستمر فخر الدين أيضاً فى تنفيذ الأوامر حينما تصدر اليه ، وفى الكف عن ابن سيفا فى الوقت الذى تطلب منه الدولة ذلك.

وهكذا اتسع نفوذ فخر الدين لدرجة أن حاكم دمشق طلب منه أن يقدم إعانة مالية للحج . وفى مقابل ذلك اشترط فخر الدين أن يكون أمير الحج السورى أحد أبنائه أو وكلائه . وأدى توسع فخر الدين إلى وقوع صدام بينه وبين يونس الحرفوش ، أمير البقاع ، الذى خشى توسعه بعد أن كان حليفاً له ؛ فهزمه فخر الدين فى معركة وقعت فى البقاع فى عام ١٦٢٢ ، واستولى ، أثر ذلك ، على موقع قب إلياس الاستراتيجى الذى يسيطر على طريق دمشق — بيروت . وقد أثار يونس الحرفوش والى الشام ، مصطفى باشا ، ضد فخر الدين . ومن ناحية أخرى ، لم يوافق مصطفى باشا على وضع البقاع تحت سيطرة فخر الدين المباشرة ، حتى لا تكون الخطوة التالية للأمير المعنى هى مهاجمة دمشق نفسها ، لاسيما وأنه قد سبق له أن أقدم على هذه الخطوة الخطيرة . ولما طالب فخر الدين امارة الحج له — نتيجة للأموال الكثيرة التى قدمها لولاية دمشق للانفاق على سلامة الحجاج — وعد مصطفى باشا كيوان بأن يحقق للأمير هذه الرغبة ، ولكن ما إن حصل الباشا على الأموال حتى نكث بعهده رغم

احتجاجات كيوان القوية (١) . واستعد الوالى عسكرياً لمحاربة فخر الدين الذى تهيأ هو الآخر لمنازلته . وكانت الفرصة مواتية لأن يوجه الأمير فخر الدين ضربته إلى والى دمشق . حقيقة أن يونس الحرفوش ويوسف سيفا قد وضعا امكانياتهما فى خدمة والى دمشق ، الا أن ذلك لم يغير من حقيقة تفوق القوة المعنية . وقد استعد الطرفان للمعركة ، وعبرت قوات والى دمشق البلاد إلى مجدل عنجر عام ١٦٢٣ (٢) ، حيث دارت المعركة التى رفعت فخر الدين إلى ذروة القوة .فأسر فخر الدين مصطفى باشا ثم أطلق سراحه (٣). وأصدر الباشا أوامره باعطاء فخر الدين غزة وملحقاتها ، وبتقرير صفد ونابلس وعجلون لأبنائه وكتخداه ، ثم عاد الباشا إلى دمشق .

وبعد موقعة عنجر حصل فخر الدين على مكاسب جديدة ، إذ لم يعش يوسف سيفا طويلا ، فتوفى فى عام ١٦٢٤ منهوك القوى مهيض الجناح سياسياً ومالياً وكان شيخاً طاعناً فى السن . وتولى ابنه قاسم حكم طرابلس، وبعد ذلك بسبعة أشهر تقريباً انقض فخر الدين على طرابلس واحتلها، وأخذها لابنه حسين وعين عليها نائباً من قبله . وفى نفس السنة اعترف رسمياً فى مرسوم سلطانى بسيطرة فخر الدين على لبنان والمناطق المجاورة، ولقد دفع فخر الدين مبالغ طائلة فى سبيل الحصول على المرسوم الذى اكتسب بمقتضاه لقب «سلطان البر» (٤) ؛ وعين حاكماً على عربستان وتمتد من حدود حلب إلى حدود القدس ، مع الانتظام فى دفع الأموال السلطانية وقدرها ٢٠٠,٠٠٠ ذهباً . وهكذا بلغت إمارة فخر الدين أقصى حدود الاتساع ، وتضاءل أمامه نفوذ الباشوات العثمانيين ؛ وأصبحت إمارته خطراً يهدد كيان الامبراطورية العثمانية فى الشرق العربى . ولكن

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٢) تقع عنجر فى البقاع العزيزى على طريق دمشق ووادى التيم واسمها القديم خلقيس أو كلشيس ، وهى كلمة يونانية بمعنى «مدينة النحاس» ، وسماها المصريون «مات نحاسى»

(٣) يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ١/٣١١ – ٣١٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

الدولة العثمانية كانت مضطرة إلى قبول الحالة الراهنة نظراً لاضطراباتها الداخلية ومشاغلها الخارجية ، إلا أنها كانت تترقب الفرصة للقضاء على هذه القوة الناشئة . وكان يحكم الامبراطورية العثمانية فى تلك الفترة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) وكان على عكس سابقيه من السلاطين ، يمتاز بالشدة والمقدرة الحربية ، فحاول انقاذ الامبراطورية من الانحلال ، وقضى على فتن الانكشارية ، ووجه عنايته إلى الثورات الداخلية (١) .

ولقد أثار استفحال نفوذ فخر الدين خشية جيرانه من الباشوات العثمانيين ، ومن أمراء العرب . فأخذوا يدسون عليه لدى السلطان مراد الرابع ، وأرسلوا ضده الشكايات لكى يحملوا السلطان على البطش به . فوجهوا ضد الأمير طائفة من التهم الخطيرة التى يكفى كل منها لاعتباره عاصياً للدولة . فذكروا أنه لا يحترم الدين الاسلامى ، وأنه لا يصوم رمضان ولا يقيم الصلاة ، وأنه يحمى المسيحيين على حساب المسلمين ، وأنه يسمح للبعثات المسيحية بإقامة الكنائس والأديرة وأنه حليف لدوق توسكانا ، وأنه قد أنشأ قنصلية تجارية لتوسكانا فى صيدا ، وأنه يسمح لفرسان مالطة بالنزول فى بلاده ، وأنه يدأب على تحصين قلاعه (٢) . وعلى هذا ، اعتزم السلطان على أن يقضى على هذا الخطر ، فأصدر أوامره إلى أحمد الكجك (أى أحمد الصغير) ، باشا الشام (٣) بأن يكون سرداراً على الجيش الموجه ضد فخر الدين ، وانضم إليه قوات آل سيفا وآل طربای .

---

(١) E. Creasy, *op. cit.*, pp. 246 — 257.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣) كان الكجك أحمد زعيم المتآمرين والمحرض الأكبر على فخر الدين . فلقد اتصل الكجك فى أول نشأته بالأمير فخر الدين ، فربى فى كنفه ، واعتنى به حتى رقاه إلى رتبة البلوكباشية. ثم ولاه جباية الأموال الأميرية فى وادى التيم . ولما أنجز عمله قصد الأمير فى بيروت ، ويبدو أنه طلب منه منصباً أو مالاً ، فلم يستجب الأمير لطلبه بل نهره وأهانه ، فحنق الكجك عليه وأنكر احسانه وذهب إلى استانبول ودخل فى خدمة الدولة وساعده الحظ حتى استوزر وتولى ولاية الشام فى عامى ١٦٢٩ و ١٦٣٢ . (انظر : يوسف مزهر ، المرجع السابق، ج ١/٣٢٤) .

ثم خرج من استانبول أسطول عثمانى لمحاصرة فخر الدين بحراً . إلا أن هذا الأسطول قد عطل تقدمه تصادمه مع بعض السفن الانجليزية المحملة بالقمح إلى ليفورنو ، واشتبك الفريقان ، وألغم الانجليز مستودع البارود فأصابت النيران قطع الأسطول العثمانى . واقتضى اصلاح العطب تأخير وصول الأسطول العثمانى إلى المياه السورية (١) . وأخيراً وصلت العمارة العثمانية بعد أن انضمت إليها وحدات من رودس وقبرص فى أغسطس عام ١٦٣٣ ، ثم تقدمت قوات دمشق . وهكذا أحاط الأعداء بفخر الدين من جميع الجهات . فعقد مجلساً فى دير القمر ، ورأى مستشاروه وجوب المفاوضة فى الصلح ودفع الأموال والرشاوى . وحاول فخر الدين أن يستميل القبطان باشا ، فقدم له الهدايا ، وذكر له أنه لم يجمع قواته ضد السلطان ، بل ضد ظلم الباشوات . وضد أعدائه من العرب ، وأنه على استعداد لتستريح قواته فى الجبل . وأكد له الطاعة والولاء للدولة العثمانية . ولكن الأوامر السلطانية كانت صريحة فى وجوب القضاء على فخر الدين وإمارته .

وإزاء ذلك اضطر فخر الدين إلى إرسال قوة بقيادة الأمير على لكى تحول دون اتصال باشا الشام بآل فريخ وآل طربای . فتقدم على والتقى بالقوات العثمانية قرب صفد فى عام ١٦٣٣ ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن تكبد الفريقان خسائر جسيمة . ولما أشيع مقتل على ، اضطر فخر الدين إلى التراجع بقواته من الدروز والموارنة إلى قلاعه ، ولكنه سرعان ما تبين له اشاعة مقتل الأمير على فنشط من جديد ، وفى تلك الأثناء جرت مفاوضات للصلح بين الطرفين . وتم الاتفاق مبدئياً على وقف القتال وعلى تولية منصور بن فخر الدين على الإمارة المعنية مع دفع مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ قرش . وقام فخر الدين بوفاء هذه الشروط فأرسل ابنه منصور ومعه هدايا ، ثم أرسل الأموال مع الشيخ أبى خطار المارونى . ولكن الباشا لم يكد يستقبل رسل فخر الدين حتى قبض على منصور ، وقتل أبا خطار . وفى

---

(١) E. Roger, *La Terre Saincte*, Paris, 1646, p. 305.

نفس الوقت أغرض القبطان باشا عن مساعى الأمير لاستمالته إليه ، وأخذ يجد فى تنفيذ الأوامر ، فاستولى على صيدا ، وأسقط بيروت وأجرى النهب والإتلاف فى قصور الأمير . ثم هاجم موارنة كسروان ، فأخذ غزير والبترون . وفى وقت قصير ، أصبح الشاطىء الفينيقى كله فى يد الدولة العثمانية . ووصلت امدادات عثمانية وتوغلت فى إمارة فخر الدين. ولم يقو المعنيون على مقاومة الجموع العثمانية ، وتم الاستيلاء على صفد وسقطت بعلبك . وبلغ الأمير فخر الدين موت ابنه على وأخيه يونس ، فأسقط فى يده وفقد شجاعته ، وتفرقت قواته ، واضطر كثير من الدروز إلى التسليم لباشا الشام ، فاتخذ منهم حاميات فى صيدا وبيروت . وتراجع الموارنة إلى الجبال هرباً من العسف والاعتداء . ولما حل الشتاء كف أحمد باشا عن التقدم ، وعاد الأسطول العثمانى إلى استانبول .

وفى تلك الأثناء حاول فخر الدين انقاذ الموقف على يد الغرب المسيحى ؛ فاتصل بالبابا أوربان الثامن وبفرديناند الثانى ، وعرض عليهما مشروع معاهدة لارسال حملة صليبية لانقاذ الأراضى المقدسة . وتولى هذه المهمة المطران جرجس بن مارون (الإهدنى) — مطران قبرص — الذى كان محل ثقة فخر الدين المعنى . فأسند اليه الأخير مهمة التفاوض مع البابا وجراندوق توسكانا من أجل عقد ذلك التحالف الكبير . واتفق فخر الدين مع جرجس مارون حول الخطوط الرئيسية للمعاهدة المقترحة ، ويبدو أن صياغة مشروع هذه المعاهدة كان من وضع جرجس مارون . وقد جاء فى مشروع المعاهدة «ان سعادة أمير صيدا قد حمله حبه الشديد للديانة المسيحية وبغضه المغروس ضد الشيعة المحمدية على الرغبة فى أن يتحد مع قداستكم وغراندوق توسكانا برباط غير منحل وباتفاق وسلم دائمين...» واشتملت الشروط الواردة فى مشروع المعاهدة على ما يلى :

١ — أن يمد الجيش المسيحى بالرجال والمؤن كل مرة ترسل قداستكم وسمو جراندوق توسكانا عسكراً لأخذ قبرص والمقدس .

٢ – أن يعطى العسكر المسيحى ميناء واحدة أو أكثر لكى يمكنه أن يلجأ إليها وقت الحرب .

٣ – يعد أن يملكهم بيت القدس ويمد لهم دائماً يد العون والمساعدة وقت مباشرة التعاهد والسلم .

٤ – يعد أن يسمح لجميع مرؤوسيه أن يعتنقوا الإيمان الكاثوليكى وهو يكون أول من ينادى به مسيحياً ويجعل عائلته أن تتعمد .

٥ – لأجل هذه الغاية قد شاد عدة كنائس للمسيحيين ورمم كنائس أخرى على نفقته وقد أمر بطريرك الطائفة المارونية الأنطاكى وسائر الأساقفة ورؤساء الأساقفة أن يعملوا نفس عمله .

٦ – يعد أيضاً أن يرعى حرمة الولاية الكنائسية فى كل مملكته ويعفى جميع الاكليريكيين والكنائس وأملاكها من كل الرسومات الجمركية والبرية وغيرها من الرسومات والضرائب المعتاد وضعها على أى كان من العلمانيين .

٧ – يعد أن لا يقبل عهداً أو معاهدة أو عقداً معروضاً عليه من السلطان أو من وزرائه قبل أن يعلم بذلك قداستكم وسموه ويسير بمقتضى حكمكم .

٨ – يعد أن يعطى رهناً لقداستكم ولسعادته بحسب رغبتكم لأجل المحافظة على الأمور المذكورة أعلاه .

٩ – يعد أن يجعل باقى أمراء العرب أن يبرموا عهداً مع الجيش المسيحى وهذا سهل عليهم بسبب القرابة والزواج المعقود ما بينهم والربح العظيم الذى يحصلون عليه من الاتحاد المار ذكره .

وبعكس ذلك فان أمير صيدا يرغب من قداستكم البنود المسطرة أدناه :

١ ــ أن تأخذ قداستكم وغراندوق توسكانا عمارة بحرية مؤلفة على القليل من خمسين بارجة جزيرة قبرس . وهذا يكون سهلا لديكم لقلة الأتراك الموجودين ثم فى الجزيرة ولتفاقم جورهم وظلمهم ولعظم الخوف واليأس وبسبب سقط (أى ضعف) أسلحة السلطان البحرية وقوة جيش الأمراء المسيحيين والمساعدات والامداد من رجال وخيل والمؤن التى يقدمها سعادة الأمير بوقتها والآن هى مجهزة علجيش المسيحى . غير أن السلطان لا يمكنه أن يعضد بوقته الجزيرة المذكورة ضد الجيش المسيحى لأن سعادة الأمير وملك العجم (أى شاه فارس) يثيران عليه حرباً فى سورية ويقدمون عليه غيرهما أمراء كثيرين من مرؤوسيه .

٢ ــ أن تتكرم قداستكم وسموه بارسال مهندسين ورجال خبيرين فى (فن) الحروب و(انشاء) المعامل .

٣ ــ بأن تعطوه مدافع وبارود وكللا (١) لمقاومة العدو التى لا توجد فى الشرق .

٤ ــ أن تحافظ دائماً قداستكم وسموه على السلم والمعاهدة وتعطى لأجل المحافظة عليها وعلى سائر العهود والشروط رهناً لسعادة الأمير . وتعد قداستكم وسموه لدى نشوب الحرب أن تعضدوا بحراً سعادة الأمير المذكور كما أن سعادة الأمير نفسه يعد ويوجب على نفسه أن يمد الجيش المسيحى براً وبحراً بجميع المساعدات النافعة والضرورية (٢).

واستمرت الاتصالات بين المطران جرجس والبابا وتوسكانا فترة من الزمن بذل خلالها المطران جهوداً كبيرة لتنفيذ المعاهدة ، ولكن مشاغل الغرب المسيحى قد حالت دون تنفيذها . وعلى ذلك ترك فخر الدين وحيداً من جميع الجهات ، وبدلا من أن تأتيه نجدات الغرب ، إذ بالأسطول

---

(١) قنابل .

(٢) عبد العزيز نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ، ص ٧٤ ــ ٧٨ .

العثمانى يقترب ثانية من المياه السورية . وهاجم أحمد باشا الامارة المعنية من جديد ، فتقدمت قواته وأسقطت قب إلياس . وأفلت فخر الدين إلى مغارة فى جزين وسط الجبل (١) فتعقبه الترك واستعصى عليهم الوصول اليه . وأخيراً عرض عليه القبطان باشا رغبة السلطان فى رؤيته ، وأنه سينال العفو إن استجاب وكانت هذه هى النهاية المحتمة . وأرسل الأمير فخر الدين مع أولاده منصور وحيدر وبلك إلى استانبول ، ونقل معه بغلين محملين ذهباً وفضة وهدايا نفيسة . فلما وصل فخر الدين إلى استانبول قابل السلطان مراد . فأنبه على أفعاله ، ولكن المعنى اعتذر له بقوله : «انى مظلوم فما جمعت الرجال الا بأمر الوزراء والنواب ، ولم ابن القلاع إلا للدفاع عن حوزة البلاد ، وما قتلت إلا الذين مرقوا من طاعة الدولة فاستوليت على حصونهم لأسلمها إلى الحكومة العثمانية وأمنت طريق الحجاج بمنع العرب عن التعدى عليهم . وأديت الأموال الأميرية بأوقاتها وأيدت الشريعة الشريفة محافظاً على قوانينها وسننها .. » (٢) فاستخلصه السلطان وتأكد تحامل الولاة عليه ولاسيما الكجك وكثرة الوشايات بحقه .

ولم يكن من المستبعد أن يستبقيه السلطان وأن يتخذه كمشير له ، الا أن رجال البلاط خشوا استفحال نفوذه فأخذوا يدسون عليه ، وتكررت الشكاوى بأنه تنصر وأنه كان يعضد النصارى . فاستدعاه السلطان وسأله هل له إخوة وأولاد ؟ فاعتقد فخر الدين أن السلطان يريد أن يحول الحكم إلى أخيه أو إلى أحد أولاده . فأنكر عليه الحقيقة وأقسم بالله وبرأس السلطان «انه ليس له من أخوة ولا أولاد» . وكان السلطان يريد أن يعيده إلى منصبه ضناً بموته وعدم قيام من يخلفه فى ولايته ، فأمر بإطلاق سراحه . وبينما كان فخر الدين يتأهب للعودة إلى بلاده وإدارة شئونهاإذا بنساء مسلمات قادمات من ثغور سورية حاملات ثياب أزواجهن وأولادهن المخضبة بالدماء ، فمثلن أمام السلطان مولولات : وقلن له : «ان الأمير ملحما ابن

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

الأمير يونس شقيق الأمير فخر الدين بعد أن رجع من مخبأه عند آل طربية في عجلون جمع رجاله القيسيين ونهب مدن بيروت وصيدا وصور وعكا وقتل مدبر الكجك وفتك بالسكان فتكاً ذريعاً حتى أنه لم يبق ولم يذر وهو عازم على محاصرة دمشق وذلك انتقاماً لعمه فخر الدين الذي وقع في أيدي الحكومة»(١). فأوغر ذلك العمل الفظيع صدر السلطان واستقدم فخر الدين ونهره على قسمه الكاذب «على أنه لا إخوة له ولا أولاد» ؛ وكان أيضاً قد عرف أنه استصحب أولاده معه إلى العاصمة ، فاتهمه بالخيانة وصدق كل ما قيل له عند الواشين به ولاسيما عن تنصره ومعاضدته للافرنج . ويقال ان الجند بحثوا في ثيابه فوجدوا فيها شعار المسيحية من مثل صليب أو نحوه (٢) فأمر السلطان بقتله مع بعض أولاده عام ١٦٣٥ ؛ وحملوا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٢) يردد بعض الكتاب أن فخر الدين قد اعتنق المسيحية إذ كانت تربطه صداقة مع الآباء الكبوشيين في صيدا وخاصة مع أحدهم الأب أدريان دي لابروس (Adrien de la Brosse) الذي حدثه عدة مرات عن أمور الدين المسيحي بغية حمله على اعتناقه . وأبدى الأمير تجاوبه ، ولكنه ظل يؤجل العماد إلى أن مرض مرضاً خطيراً في عام ١٦٣٣ . وفي أثناء مرضه استدعى الأب أدريان المذكور الذي علمه ما يتعلق بالخلاص الأبدي . وظل الأمير متردداً ووعد الراهب المذكور بأنه سيفكر ملياً في الأمر . «وفي الغد أعاد الأب أدريان الكرة ، فأجابه الأمير أنه مشتاق إلى اعتناق الدين المسيحي منذ زمن طويل ، ولكن الخوف من الدولة العثمانية كان يحول دون اظهار هذا الشوق واخراجه إلى حيز التنفيذ .. ثم طلب إلى الأب أدريان أن يحلف له ويده على الإنجيل بأن يكتم الأمر (عماد فخر الدين وتنصره) عن أي كان ، وأكد له أنه مستعد لاجراء كل ما يراه الأب مناسباً لمجد الله وخلاص نفسه . فعمده الأب ودعاه «لويس فرانسوا» وتلا الأمير قانون الايمان طالباً إلى الأب أن يزيده معرفة بأسرار يسوع المسيح طوال مرضه .. وبما أن الأمير أراد أن يتنصر أولاده الآخرون .. فانه وضع بتصرف الأب أدريان كمية من الحجارة الثمينة والمال المودع في البنك في أوروبا واعدا بأن تخصص أولاده .. بأكثر من مليون قرش ذهبي ليتمكن هؤلاء الأولاد من الانتقال إلى أوروبا عن طريق فرسان مالطة ليتربوا في بلاد النصرانية على الدين المسيحي . ولكن عارض هذا الأمر أبو نادر الخازن وحال دون تنفيذه» . (الأب بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩) . ولكن عيسى اسكندر المعلوف (ص ٢١٦) يشكك في هذه الرواية لكثرة أقوال المؤرخين من افرنج وعرب بشأن تنصر الأمير وقتله مع أولاده .

رأسه على حربه ، وطافوا به فى شوارع استانبول وعلى رأسه الكتابة الآتية : «هنا رأس الأمير فخر الدين العدو الثائر» .

على كل حال ، لم تكن نهاية فخر الدين المعنى الثانى نهاية لحكم المعنيين فى جبل لبنان ، إذ بقى هؤلاء يحكمون حتى عام ١٦٩٧ . ولكن مما لا شك فيه أن القضاء على فخر الدين قد أضعف أسرته كثيراً ، وأضعف بالتالى إمارة جبل لبنان . وقد أدى القضاء على فخر الدين إلى حدوث شبه فراغ سياسى فى جبل لبنان وفلسطين ، ولم يستطع أى أمير محلى أن يملأ هذا الفراغ إلى أن سيطر ظاهر العمر الزيدانى فى القرن الثامن عشر على فلسطين ، وطغى بنفوذه على أمراء جبل لبنان والولاة العثمانيين . واعترف العثمانيون ، بعد القضاء على فخر الدين ، بالأمير على علم الدين ، من الحزب اليمنى ، أميراً على الشوف ، وبالتالى على جبل لبنان . وكان الأمير على هذا قد ساعد العثمانيين ضد عدوه فخر الدين الذى تزعم الحزب القيسى . ولكن الأمير ملحما المعنى ، الذى خلف عمه فخر الدين ، لجأ إلى الشهابيين فى وادى التيم ، فساعدوه مع القيسية الذين تكتلوا لطرد اليمنية ، واستعاد مركزه أميراً على الشوف وعلى جبل لبنان فى عام ١٦٣٥ . واستمر العثمانيون يؤيدون آل علم الدين ، زعماء اليمنية ، ضد المعنيين لإضعافهم . وظلت المشاحنات مستمرة طوال القرن السابع عشر بين المعنيين الذين أيدهم الشهابيون الأقوياء فى وادى التيم وبين آل علم الدين الذين أيدهم ولاة دمشق. ومما لاشك فيه أن السلطة التى بلغها فخرالدين قد زادت من أهمية منصب أمير الشوف . ولكن خلفاء فخر الدين المباشرين لم يستطيعوا ،

---

=ويرى أنه لايمكن القطع فى ذلك«الا إذا تواترت الشهادات وثبت التقول وصحت الروايات». أما الخالدى الصفدى ، مؤرخ فخر الدين ، فيذكر (ص ١٢١) .انه كان مطيعاً لله وللسلطان ، حريصاً على إقامة شعائر الاسلام أثناء إقامته فى الغرب . (انظر ص ٢٥ من البحث) ويبدو أن فخر الدين ، فى علاقته مع الغرب ، كان يحاول أن يستميل إليه الرأى العام المسيحى باعلانه عن استعداده للتحول إلى المسيحية . (أنظر المادة ٤ من مشروع المعاهدة بينه وبين البابا أوربان الثانى فى نوفمبر عام ١٦٣٤) .

نظراً للظروف المحيطة بهم ، بلوغ المستوى نفسه من النفوذ إلى أن تولى إمارة جبل لبنان الأمير بشير الشهابى الثانى (١٧٨٨ — ١٨٤١) . ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال ، أن الأمير فخر الدين لم يهدف من حروبه ضد الدولة العثمانية «قومية لبنانية ، وكياناً لبنانياً ، وحدوداً لبنانية» كما يتصور البعض . فلم تتوصل مدارك ذلك العصر إلى هذه المبادىء الحديثة . كما أن أمراء لبنان لم يتميزوا قط عن سائر الولايات المحيطة بهم إلا بقدر ما يتميز به زعماء البادية عن زعماء الحاضرة ، وحكام السهل الموطأ عن حكام الجبل المرتفع .

## ملحق (١)

### مشروع معاهدة على باشا جنبلاط مع أمير توسكانا والبابا وأسبانيا (١)

بايردى على جنبلاط ١٠١٥ (٢)

باسم الله العلى العظيم .

هذا ختم اسرة جامبولات السامية الشرف وختمنا الخاص نحن على جامبولات أمير مملكة سوريا وحاميها لأن أغلبها خاضع بأذن الله لسلطاننا .

ان صاحب السمو غراندوق توسكانا قد أوفد الينا سفيراً الفارس ميخائيل قريع من أعيان حلب . فسلمنا كتاباً منه ارتحنا إلى مضمونه الارتياح كله لأننا لمسنا فيه رغبة سموه فى ان يعقد معنا عهد صداقة كاملة . ونحن نعلم ان رغبتنا فى هذه الصداقة لا تقل عن رغبة سموه .

ولهذا السبب نتقبل بكل سرور صداقته المتينة . واتيقن إن يقبل بدوره صداقتنا الغير المتزعزعة التى نقدمها له مع رباط المحبة الخالدة ، آملين أن تفتح هذه الصداقة للفريقين باب فوائد جزيلة . لأن السيد ميخائيل قريع وعدنا باسم سموه أن يحمل صاحب الغبطة البابا بولس الخامس نائب الرب على الأرض للمسيحيين وجلالة ملك اسبانيا وغيرهما من أمراء النصرانية وملوكها على أن يولونا أيضاً صداقتهم وينضموا إلى هذه المحالفة الرامية إلى كسر شوكة الامبراطورية العثمانية وتعزيز بيت جنبلاط وعلى الأخص شخصنا .

---

(١) بولس قرألى ، على باشا جنبلاط ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٢٤ –٣٤.

(٢) ١٦٠٧ م .

ولبلوغ هذه الغاية نعدهم بأن نقوم بكل فتح يطلبونه منا مهما كان صعب المنال ، ونعاهدهم بأن نزحف على أورشليم المدينة المقدسة وان نقاتل كل من يجسر على الوقوف أمامنا ونبذل كل الجهد للاستيلاء عليها ، واثقين من النجاح بأذن الله . ونعاهدهم أيضاً على مباشرة هذه الحملة حالما يتوصل سمو الغراندوق إلى حمل الكرسى الرسولى وملك اسبانيا على توقيع عهد الصداقة والمحالفة معنا ، وتقديم ما يلزم لها من الذخائر والمؤن ، حسب الشروط التى وضعناها لهذه الغاية .

(ثالثاً) فتح القدس — ونترك تدبير الأمر لفطنة سمو غراندوق توسكانا ومروءته . ولا يخفى عليه أن الهمة التى تبذلها للقيام بهذه الحملة والتغلب على الصعوبات التى تعترضها تزداد على قدر المساعدات التى يتلقاها . فنكرر القول انه حالما يعلمنا سموه بقبول العاهلين المذكورين التحالف معنا ، ونتسلم صورة أصلية من المعاهدة ممهورة بتوقيعهما ، وتصل فى الوقت عينه الذخائر التى طلبناها إلى احد المرافىء فى مملكتنا حيث نضع نظاماً وافياً لتسلمها ولرسو الأغربة والمراكب التى تقلها ، تقوم بدورنا بالزحف على أورشليم بدون تأخير ، حتى تبلغ بشائر فتوحاتنا إلى بلاد النصرانية بأترب وقت .

ولكى يثق الأمراء المذكورون من جهودنا ومن رغبتنا الخالصة فى خضد شوكة هذا العدو القدير ، وان أمكن كسرها ، نعدهم بتخصيص احدى أساكلنا (١) لاغربتهم ومراكبهم ، حسب الاتفاق الذى نعقده سابقاً مع سمو الغراندوق ، وان نقدم لهم جميع التسهيلات والخدمات التى يتطلبونها منا لهذا الغرض . وبما أن أول حملة نقوم بها ستكون موجهة إلى أورشليم المدينة المقدسة ، نعاهدهم على أن نترأسها بشخصنا . وأملنا

---

(١) المفرد (اسكلة) ، أى ميناء .

وطيد بالله أن نستولى عليها . ونحن نبدى منذ الآن رغبتنا فى أن يسكنها بأمان جميع المسيحيين ويمارسوا فيها بحرية تامة شعائر ديانتهم الكاثوليكية . وللراغبين من بلاد النصرانية أن يهاجروا اليها الحق فى استيطانها . واذا نشب بينهم خلاف يكون مرجعهم القنصل التوسكانى أو وكيله المقيم فى حلب.

اذا قصد المسيحيون إلى المدينة المقدسة ، ليس التوسكانيون فحسب ، بل جميع الخاضعين لسلطة صاحب الغبطة البابا بولس الخامس ، سواء جاءوا لزيارة قبر يسوع المسيح مخلصهم والههم أو سائر الأماكن المقدسة أو لغرض آخر ، يعفون فى دخولهم وخروجهم من كل الرسوم والضرائب التى تعودوا أن يؤدوها فى عهد الدولة العثمانية التى كانت تملك هذه الأماكن بدون استحقاق ، لأن سفير الغراندوق وعدنا باسمه ان يعوض علينا بدلا من هذه الرسوم سنوى نتفق عليه مع سموه .

(رابعاً) امتيازات تجارية — وبما أن هذه المحالفة يجب أن تعود بالفائدة على الطرفين ، باطلاق حرية التجارة فى الاساكل والمدن الخاضعة لسلطاننا ، حسب اصول المعاملات التجارية ، نامر أن تلحق البنود الآتى بيانها بالشروط المدونة أعلاه التى صادقنا عليها واقسمنا بالمحافظة عليها .

لما كان صاحب السمو غراندوق توسكانا اول من سعى من الامراء الأوروبيين إلى صداقتنا ومحالفتنا ، فقد خولنا الامة التوسكانية ، وخاصة الفلورنتية ، الحق فى تعيين قناصل فى مدن مملكتنا ، يرجع اليهم سائر رعايا الدول الداخلة فى الحلف ، سواء كان فى الشؤون التجارية او غيرها ، كما سيلى شرحه ، الا اذا كان رأى سموه غير ذلك .

ولجميع الرعايا الفلورنتيين والتوسكانيين الخاضعين لسمو الغراندوق الحق بأن يدخلوا بمراكبهم أيا كان نوعها ، اساكل مملكتنا ، وان يسافروا منها ، وان يتجولوا اينما شاءوا فى المدن والأراضى الخاضعة لنا ، ويتعاطوا كل أصناف البضائع وأنواع التجارة ، وان يعقدوا العقود فى اسواقنا

حسب الاتفاق بينهم وبين تجارنا ، وان يبيعوا ويستردوا بأمان. واللامة الفلورنتية الافضلية على غيرها من الأمم الخاضعة لسموه .

لسفراء سموه غير العاديين الموفدين الينا، ولقناصل الأمة الفلورنتية ووكلائهم وتراجمتهم وكتبتهم ، أن يدخلوا جميع الأماكن الواقعة فى مملكتنا، وأن يخرجوا منها ويسكنوها بطمأنينة ، دون أن يجسر أحد على ازعاجهم ، بل نرغب أن يلاقوا من الجميع الرعاية والمساعدة فى احتياجاتهم .

على جميع الرعايا الخاضعين للملوك والأمراء المسيحيين المتحالفين معنا أن يرجعوا إلى قنصل الامة الفلورنتية المقيم فى حلب فى كل الخلافات التى قد تنشأ بينهم سواء كان لاسباب تجارية أو غير تجارية ، مدنية امجزائية. وليس لهم أن يلجأوا إلى غير محاكم افرنجية ام وطنية . والاحكام الصادرة من هذه المحكمة غير قابلة الاستئناف ومخولة كامل السلطة التنفيذية .

مراعاة للصداقة التى ارتبطنا بها مع سمو الغراندوق ، نمنح كل الفلورنتين الذين يتعاطون التجارة فى اراضينا حق شراء البضائع الممنوعة أو المهربة ، وشحنها على مراكب سموه او على اى مركب آخر دون أن يتعارضهم احد.

اذا قبل تجارنا النقود التى يجلبها او يستجلبها الفلورنتيون من بلادهم فلا يحق لامناء خزنتنا او للذين يضربون العملة العثمانية او الجمبلاطية ان يحجزوها بحجة احتكارهم ضرب العملة .

ولا يجوز ايضاً حجز البضائع الخاصة باعدائنا اذا كانت مشحونة بالاجر على مراكب سموه أو على مراكب الفلورنتيين . هذه هى ارادتنا.

ولا يجوز أيضاً فرض رسوم اضافية على البضائع التى يجلبها الفلورنتيون إلى اساكلنا ومرافئنا او التى يصدرونها منها بحجة تخمينها باسعار تزيد عن الأسعار الموضوعة سابقاً على مثل هذه البضائع .

على جميع التجار الذين يشحنون بضائع على مراكب فلورنتية ، أو يتاجرون تحت راية سمو الغراندوق ، ان يدفعوا رسوم القنصلية الى سفير سموه او الى وكيله او الى اى موظف يعينه لهذه الغاية ، اذا ارتكب أحد الرعايا الفلورنتيين جريمة القتل او جناية ما او اختلف مع احد مواطنيه على امر ما ، فلسفيرهم او لقنصلهم ان يحكم فيها بحسب شرائعهم ، ولا يحق لاحد من موظفينا التعرض لشؤونهم .

لا يجوز سجن القناصل الفلورنتيين المعينين فى اساكل مملكتنا للسهر على راحة التجار ، ولا وضع الاختام على منازلهم . واذا رفعت عليهم دعوى او طولبوا بمال فليس للقاضى او الصوباشى او الكاخية او غيرهم من الموظفين العسكريين او المدنيين الحق فى ملاحقتهم بل برفع أمرهم الى حضرتنا رأساً او الى ديواننا العام .

ناذن للقناصل الفلورنتيين ولرعاياهم ان يشيدوا لهم كنيسة فى حلب حيث يوافقهم بعد الاتفاق مع المالك . ونوصى رعايانا بان يسهلوا عليهم اقامة هذه الكنيسة حسب امنيتهم ، وتعيين رهبان من ذويهم يتولون خدمتها حسب شرائعهم وطقوس المذهب الكاثوليكى ، دون ان يجسر احد على معارضتهم او مضايقتهم . ونرخص ايضاً للفلورنتيين أن يشتروا او ان يستأجروا او يبنوا لهم منازل لسكناهم ومخازن ودكاكين لبضائعهم .

لما كان سمو الغراندوق قد اظهر لنا صداقة عظيمة وسعى وراءها بواسطة سفيره ، وسبق الجميع فى ما عرضه علينا من السعى فى تعزيز بيتنا وحمل سائر ملوك النصرانية وامرائها على الارتباط معنا بالصداقة ، نرغب ان يكون لسفرائه وقناصله ووكلائهم ، اذا قصدوا الى قصرنا او الى قصور قاضينا وكاخيتنا وكبارموظفى دولتنا ، حق التقدم على غيرهم من سفراء وقناصل الدول المتحالفة معنا المقيمين لدينا ،وعلى بقية السفراء او القناصل المقيمين فى حلب ، الا اذا شاء سمو الغراندوق خلاف ذلك .

إذا شاء سفير غراندوق توسكانا او قنصله او وكيله من رعايا الامة الفلورنتية الخروج الى المدينة ليمثل فى حضرتنا او لاى داع آخر او الخروج خارج المدينة لاشغاله ونزهاته ، فله الحق هو ورفيقه من الامة ذاتها والحارس الوطنى الذى يرافقهما أن يمتطوا الجياد دون ان يعترضهم أويزعجهم أحد(١) .

للفلورنتيين القادمين بالبضائع على مراكبهم الى اساكل مملكتنا ومرافئها ملء الحق فى دخولها والخروج منها والتجول فى أراضينا بامان . واذا قذفتهم العاصفة واحتاجوا الى مساعدة فليمد رعايانا لهم يد المعونة. وليكن لقباطينهم وخدمة مراكبهم الاحترام والرعاية ، وليقدم لهم من مالهم كل ما يحتاجون اليه من زاد وخلافه .

واذا ارتطم مركبهم بصخر وغرق يعاد اليهم كل ما امكن تخليصه من البضائع والاسباب والاموال . وعلى الحكام وغيرهم من الموظفين ان لا يتعارضوهم بل يساعدوهم فى احتياجاتهم ، ويخولوهم حرية الذهاب والاياب والاقامة بأمان الا اذا ارتكبوا ما يشين الآداب العامة .

ليس للمحافظين والقواد والجنود التابعين لنا ولا لاحد من رعايانا ان يتعرضوا للتراجمة الفلورنتيين واتباعهم القادمين الى بلادنا بحراً او براً للبيع والشراء اذا سددوا رسوم القنصلية حسب العوائد .

اذا كان احد الفلورنتيين مثقلا بدين فلا يطلب الدين الا منه او من ضامنه . ويشمل هذا الامتياز جميع رعايا سمو الغراندوق . اما مرجعهم فالقنصلية التوسكانية .

اذا توفى احد الفلورنتيين أو التوسكانيين او غيرهم من الواضعين انفسهم تحت لواء توسكانا ، نرغب الى جميع ما مورينا ونامرهم بان يمتنعوا

---

(١) لم يكن للمسيحيين الحق فى ركوب الخيل .

عن التعرض لاسبابه وأمواله ، بل يسلموها إلى ورثته طبقاً لوصيته الأخيرة . وان مات بلا وصية فلينقلوها بحضور قنصله ورضاه الى دار احد مواطنيه دون أن يتعارضوهم بشيء او يتداخلوا بامورهم .

على الفلورنتيين وقناصلهم وتراجمتهم وجميع التابعين لهم ان يسجلوا عقود البيع والشراء وسائر المعاملات التجارية لدى قاضي العدل . واذا دعى عليهم احد بدين ما ، فلا ينظر في دعواه الا اذا كان عقد الدين مسجلا في سجلات محاكمنا. وان جاءوا بشهود زور لاتسمع شهاداتهم ، بل العمدة فقط على العقود المسجلة أمام قضاتنا ، والا رفضت الدعوى. وحذار من مخالفة أصول الشرع .

على الحكام أن يحذروا من المكائد التي تكاد على الفلورنتيين لتلصق بهم تهمة السب والشتم توصلا إلى مضايقتهم وابتزاز اموالهم . فلا يسمح ان يمسوا بسوء ، ولا يكترث للشكاوى التي تقدم عليهم لهذا الغرض .

اذا كان احد الفلورنتيين مديناً بمال او ارتكب جناية وهرب لا يلاحق سوى الذين ضمنوه او شاركوه في الجناية . لا يجبر الفلورنتيون واتباعهم من المشتغلين بالتجارة او الصناعة على دفع الضرائب وسائر الرسوم سواء كانوا مزوجين او غير مزوجين .

لا يجسرن احد على معارضة تعيين القناصل الفلورنتيين في اساكلنا او استبدالهم بغيرهم أو الادعاء بالحلول مكانهم .

واذا وقع خلاف بين الفلورنتيين فلسفير توسكانا او قنصلها الحق في فض هذا الخلاف حسب شرائعهم وانظمتهم دون ان يتعارضهم احد من مامورينا .

ولما كنا قد وافقنا على كل البنود المذكورة اعلاه البالغة الثلاثين ووافق عليها سفير سمو غراندوق توسكانا الذي ارتاح اليها الارتياح كله، واكد لنا

ارتياح سموه اليها ، فقد راينا ان نمهرها بتوقيعنا ، وتختمها بخاتمنا الخاص . وسيذيلها أيضاً السيد ميخائيل قريع سفير سموه بتوقيعه وتوقيع كاتم اسراره السيد جرجي كروجر بعد ان شرحت له . وقد وعدنا السفير المذكور ان يقدم لنا نسخة مطابقة لهذا العقد ممهورة بتوقيع سمو غراندوق توسكانا وخاتمه ، اكراماً لنا وتوثيقاً لعرى الصداقة والمحالفة التي ارتبطنا بها معه .

توكلت على الله

**العبد على**

# ملحق (٢)

## الإمارة المعينـــة

(١) فخر الدين الأول (توفى ١٥٤٤)

(٢) قرقمـــاز (١٥٤٤ — ١٥٨٥)

يونس

(٣) فخر الدين الثانى (١٥٩٠ — ١٦٣٥)

(٤) ملحم (١٦٣٥ — ١٦٥٧)

(٥) أحمد (توفى ١٦٩٧)

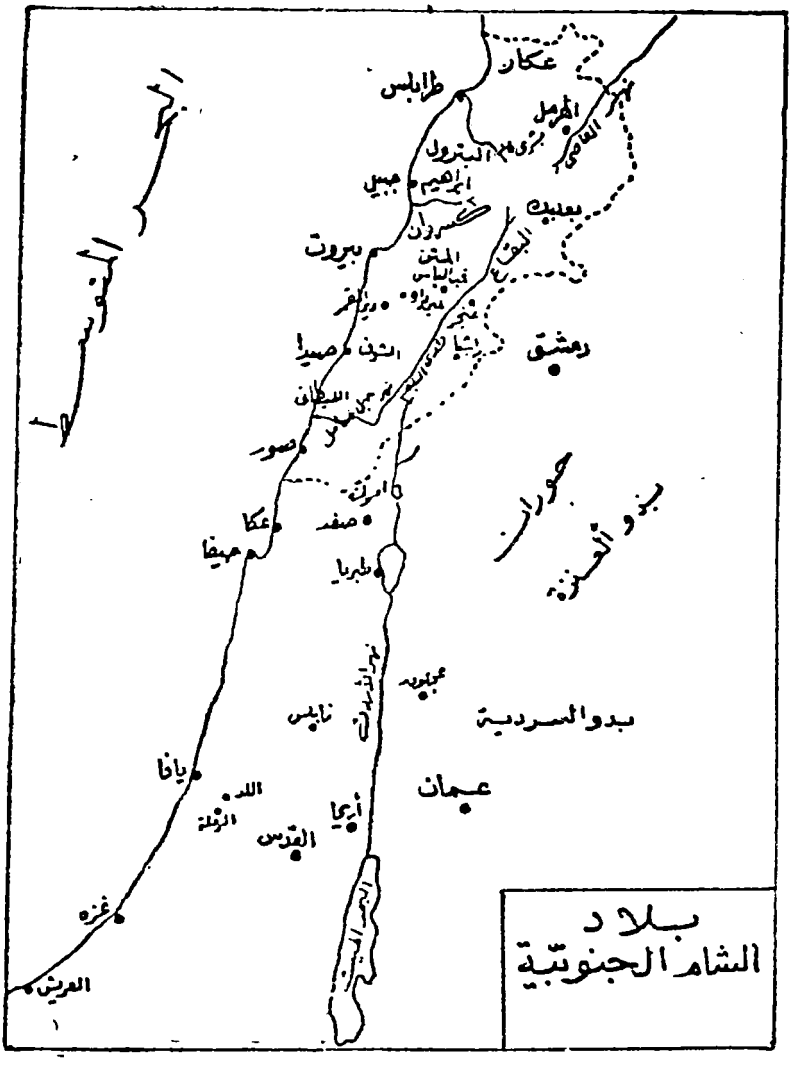
عكار
طرابلس
الهرمل
نهر الكبير
البترون
جبيل
بعلبك
كسروان
بيروت
البقاع
المتن
قبرشمون
ضهر البيدر
عين الصفصاف
زحلة
دمشق
الشوف
صيدا
صور
البحر المتوسط
مرتفعات الجولان
حوران
جبل الدروز
صفد
عكا
حيفا
طبريا
نهر الشريعة
مجدلون
نابلس
بدو السردية
يافا
اللد
الرملة
أريحا
عمان
القدس
غزة
العريش
البحر الميت
بلاد
الشام الجنوبية

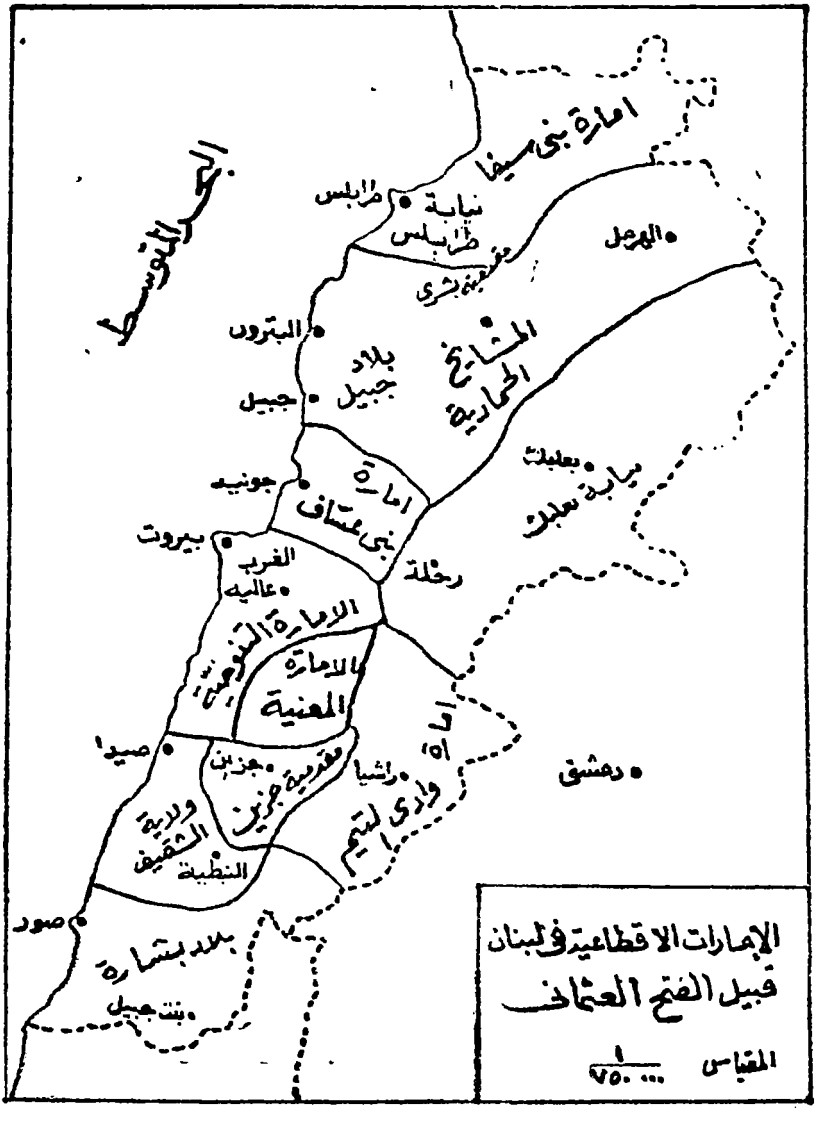
البحر المتوسط
امارة بني سيفا
نيابة طرابلس
طرابلس
الهرمل
قرنة بشري
البترون
المشايخ الحمادية
بلاد جبيل
جبيل
جونيه
امارة بني عساف
بعلبك
نيابة بعلبك
بيروت
الغرب
عاليه
رحلة
الامارة الشوفية
الامارة المعنية
صيدا
مقربية جزين
جزين
راشيا
امارة وادي التيم
دمشق
ولاية الشقيف
النبطية
صور
بلاد بشارة
بنت جبيل
الإمارات الاقطاعية في لبنان
قبيل الفتح العثماني
المقياس 1/750.000

٥٤/٥